المشرق

السنة السادسة والاربعون — تموز – آب ١٩٥٢

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد المستظهر المسترشد ابنه

تولّى سبع عشرة سنة وثمانية شهور . ولمّا بويع بالخلافة حطم خوابي خمر وافرةً كانت لابيه وأتلفها . وطرد المطربين والمطربات من البلاط . ورأى أباه في الحلم يقول له : أخرجني من عندك لئلّا آخذك اليّ . فاضطرب ونقله ودفنه في مكان آخر . وجعل بيدي التصوّف . وكبس دار المحامي ابي طاهر ابن احمد وعثر فيها على بيعة بما فيها من آنية المذبح وقال له : ما هذا ؟ فقال : كانت لي زوجة نصرانيّة صنعت ذلك دون معرفتي .

وفي السنة ٥١٢ للعرب (١١١٨م) احتلّ (٢٨٢) حرّان الامير ايلغازي بن ارتق وأرتق شيوخها المشاهير وقاضيها . وكان صاحب حلب قد سبق فدفع لرجير صاحب انطاكية ذهباً وافرًا ولم يقدر ان يهادنه ألاّ اربعة اشهر فقط ريثما أقبل الحصاد ورُفعت البيادر فعاد رجير الى حلب وحاصرها فاستغاث الحلبيُّون بالامير ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين فحشد سبعة آلاف تركيّ واقبل يناوش الفرنج حتى كسرهم وقُتل رجير في المعركة وانهزم سائر الفرنج الى انطاكية . فزحف اليها الاتراك واحتلّوا ضواحيها وفتكوا برهبانٍ كثيرين في الجبل الأسود . وبلغ بغدوين الثاني ملك اورشليم ما صار فتتبّع الاتراك . وكان كمناؤهم قد اجتاحوا الرجّالة الفرنج وانقضّ عليهم وبطش بهم قاطبة . ثم عاد يريد ايلغازي واستنقذ الغنيمة من يديه ورجع بها الى انطاكية . وذكر البطريرك ميخائيل المغبوط ان غازي بن دنشمند هو الذي كسر الفرنج وقتل رجير . ولعلّ تشابه الاسمين اوقعه في الخطأ والغلط .

وفي هذه السنة احتلّ صاحب ملطية بلد جيحان وابلستين وقلعة قطيعة . وفي شباط تلك السنة غزا الفرنج بلد ملطية وغزا الاتراك بلد جرجر . وغزا صاحب ملطية بلادة قماح فسار صاحبها الى طرابزون واستغاث باليونان فبعثوا معه القائد جبراس. فناوشه صاحب ملطية وبلك وظفروا به واعتقلاه فدفع لهما ثلاثين الف دينار وعاد الى وطنه . وانتزع ايونيّ ملك قسطنطينية ثلاثة حصون من الاتراك . وأحرق ايلغازي غلّات بلد الرها . وغزا ضواحي انطاكية . ومات طغتكين صاحب دمشق وخلفه ابنه فحمل عليه التنطاش التركيّ وبطش به وتولّى مكانه .

وفي السنة ٥١٥ للعرب (١١٢١م) انتقض الملك مسعود في الموصل على اخيه السلطان محمود دون موافقة الامير زنكي. وحشد الجيوش ونازل اخاه السلطان فكسره السلطان وقبض عليه واوثقه بالأغلال . وولّى الامير برساقي بلاد الموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبعثه اليها .

وارسل ملك قسطنطينية اليوناني في تلك الغضون الى ايلغازي بن ارتق يقول : ان جماهير غفيرة من الفرنج خرجوا من البحر الى سوريّة فيجب ان

نستعد لمقاتلتهم . واذا احتجتَ فاني منجدك بثلاثين الفاً . فسارع ايلغازي وسدّ الموانئ واجهز على الكثيرين من الفرنج وتقهقر البقيّة الى فروجية . وتمّ ذلك بدسيسة اليونان المكّارين.

وكان ارمن جرجر يتلصّصون يومئذٍ في اطراف حصن زياد وبولا وملطية فأرسل بلك الامير التركيّ الى ميخائيل الارمنيّ صاحب جرجر يعده بان يؤدي له كلّ سنة الف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه بشرط ان يمنع اصحابه عن التلصّص. فأقسم له ميخائيل في ذلك غير مرّة ولكنّه حنث في قَسَمه فكانت الحنطة تصل اليه ولصوصه يواصلون احراق القرى في هتزيط . وعند ذلك عبر بلك جليد الفرات الى جوبلس في شباط وكانت الثلوج متراكمة في الجبال فوجّه الف حصان قطعت جبل قريونا الشاهق وشقّت الثلوج فسارت الجيوش التركيّة ووصلت في يوم واحد الى دير برصوما . وفي تلك الليلة شق الاتراك جبل الجدار في جرجر وانقضّوا صباحاً على ملطية المنكودة الحظ وغزوا ضواحيها يوم الاثنين اوّل كانون الثاني ١٤٣٢ لليونان (١٢٢١ م) واجتاحوا الاهالي والبهائم وانطلقوا . وأشفق بلك على الفلّاحين المسيحيّين وترك لهم مالهم كلّه وذهب بهم الى هتزيط وشدّد عليهم الأمر بان لا يعودوا الى جرجر والّا فانه متى اقبل ثانيةً الى تلك النواحي فلن يشفق عليهم.

وفي السنة ١٤٣٣ لليونان (٢٨٤) (١١٢٢ م) وجّه السلطان محمود جيشاً ضخماً من الاتراك الى بلد الكرج فأوصد الملك التنور وفتك بالكثيرين منهم. وغزا جوسلين الفرنجيّ بلد جوباس . وفي هذه السنة مات ايلغازي بن ارتق.

امّا جوسلين فبعد وفاة امرأته اقترن بابنة رجير صاحب انطاكية واراد ان يأخذها معه الى الرها . لكنّ بلك اقام لها كميناً قبضوا عليها ومضوا بها الى بولا . وتخلّى ميخائيل الارمني للملك بغدوين عن جرجر على اثر تغلّب الاتراك عليه واكتفى بموضعٍ آخر.

وفي السنة ٥١٧ للعرب (١١٢٣م) شخص ابن شهرزوريّ قاضي الموصل الى بغداد وأدّى للخليفة خمسة آلاف دينار واحتلّ غربيّ دجلة كلّه من حدود الموصل حتى البصرة.

وكان الفرنج في السنة ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) مخيّمين في شاطئ نهر سنجا فانقضَّ عليهم كمين بلك الامير التركي وناوشهم وقبض على الملك بغدوين يوم الاربعاء من اسبوع البياض . وتأهب القمّصان جوسلين وغالران كل الصيف لمنازلة الاتراك حتى تلاقى الجيشان في ايلول . فانكسر الفرنج واعتُقل القمّصان ليلة عيد الصليب وسجن بلك ثلاثتهم في جبّ بقلعة خرتبرت وهي حصن زياد . ولمّا عرف بعض العَمَلة الارمن ان ليس في القلعة الّا القليلون احتشدوا في بابها يتذمّرون بسبب اجرتهم . ثم وثبوا وانتزعوا ما هناك من السيوف وفتكوا بالحرّاس الاتراك . وسارعوا الى الجبّ فانتشلوا الملك بغدوين وجوسلين وغالران واجهزوا على العرب واحتلّوا القلعة . ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلًا مع رجل ارمنيّ وذهب ليأتي بجيش يحتلّ القلعة ان تيسّر او ينقذ الملك بغدوين . غير انه ما كاد يخرج جوسلين (٢٨٥) حتى وصل بلك وصوَّب المنجنيقات نحو القلعة واحتلّها وقتل سبعين من الفرنج والارمن. واخذ الملك بغدوين وابن اخته غالران ومضى بهما الى منبج وحاصرها فرماهُ احدهم من السور بسهم قضى عليه وانهزم عساكره الى حلب وولّوا تيموطاش ابن عمّه زعامتهم فباع الاسيرَين بمائة الف دينار . وعاد بغدوين الى اورشليم . وتولّى حصن زياد سليمان نسيب بلك وتولّى صاحب ملطية مسارا وجرجر .

وظهر نجم ضخم طوله من الجنوب الى الشمال . وعرضه كرقبة حصان وظلّ مدّة شهرين .

ويوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤م) انقضَّ على ملطية الامير غازي بن دنشمند صاحب سبسطية واجتاح ضاحيتها كلّها وحصر المدينة شهرًا واحدًا . ثم ترك في قرية سامان ابنه محمّدًا مع جيش كثيف وأمر بمتابعة الحصار دون ان يَدَع احدًا يدخل المدينة او يخرج منها. وكان عَرَب صاحبها غائبًا يتلصّص بلد دنشمند ويجتاحه . وتفاقم جوع الملطيّين حتى بيع قفيز الحنطة اعني حمل الجحش بستّة وثلاثين دينارًا ذهبًا . وفني القوت اخيرًا بالمرّة وجعل الاهالي يَبلّون الجلود اللّيّنة وغُلُف الكتب والاحذية ويسلقونها ويأكلونها . واضمحلّت السنانير والكلاب والحمير اضمحلالًا تامًّا . هكذا انتابت ملطية

التاسعة ثلاث ضربات أليمة : السيف يفتك بكل من يغادرها والجوع يجتاح مَن في داخلها وايزابيل الثانية امّ السلطان التي فرّت من الموصل تشدّد على الاعيان لتسليمهم الذهب وتنهزم او تجتاحهم قاطبةً وتنطلق .

وظهرت يومئذٍ نجوم تتساقط من السماء .

وحين ذاك تحنّن الربّ (٢٨٦) على خاصة المسيحيين فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها ليلة الاربعاء عاشر كانون الاوّل ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ودخل الامير غازي وشاهد البقيّة الباقية كأنّها خارجة من القبور بسبب الجوع. وأبدى للجميع كلمة التشجيع والتسلية وأعطى الفلاحين حنطة ليزرعوها واستحضر البقر والثيران والاغنام حتى انتعشت المدينة .

وذكر البطريرك ميخائيل المغبوط ان الخليفة المستظهر مات في هذه السنة وخلفه ابنه المسترشد. ولعلّه اخطأ في روايته بسبب اختلاف سَير اعوام العرب القمريّة واعوام اليونان الشمسيّة .

وفي السنة ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) فتك الفرنج في كفرطاب بصاحب حماة واحتلّوا جبلة وشدّدوا على صور حتى وصلت مراكب البندقيّين الفرنج واقبل ملك اورشليم الى مساعدتهم واحتلّوا المدينة بعد معارك طاحنة.

وحشد الملك عَرَب جنوده وحمل على اخيه مسعود سلطان قونية لاتفاقهِ مع ابن دنشمند . فانهزم مسعود الى قسطنطينية ورحّب به ابوني ملك اليونان ترحيباً جميلاً واعطاه ذهباً وجيشاً كثيراً فخرج قاصداً غازي ثم انطلقا معاً يريدان عَرَب فانهزم عرب الى بلد تورس الارمني صاحب قيليقية.

وفي السنة المذكورة ظفر عشرة اسمعيليّين على آقسنقور برسوق أمير الموصل وهو في مسجدها الكبير القديم فنهض وبطش بثلاثة منهم ثم حمل عليه بقيّتهم وقتلوه . وخلفه عزّ الدين مسعود ابنه في الموصل وجزيرة قردو وما بين النهرين وحلب وحماة وغيرها . وعاش سنةً واحدة ومات . وخلفه اخوه الصغير بناظره الامير جاولي التركيّ احد عبيد ابيه برسوق . وهذا جاولي ارسل أبا الحسن عليّ بن شهرزوري قاضي الموصل وصلاح ياجوبساني بمثابة سفيرَين الى السلطان

في بغداد تأييدًا لابن برسوق الصغير في الولاية . غير انهما قالا للسلطان : ان الموصل في حاجة الى رجل (٢٨٧) منجّذ في الحرب يستطيع مناهضة الفرنج الذين زعزعوا العرب جميعاً . وأشارا الى اتابغ زنكي بن قاسم الدولة آقسنقور وكان شحنةً في واسط وبغداد . فوافقهما السلطان وكتب له فرماناً ووجَّهه الى تلك المدينة . فمرَّ ببلدة بيت وازيق واحتلها ولمَّا بلغ الموصل بعث جاولي الى الرحبة وولّى صلاح ياجوبساني حراسة القلعة ونصب ابن شهرزوري قاضياً على الموصل وملحقاتها يخلفه في القضاء نسله على كرور الزمان . وتولّى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص.

وفي السنة ١٤٣٨ لليونان (١١٢٧م) اقتتل غازي وعَرَب كذلك فانكسر عَرَب ولحقه غازي وابتزَّ خيامه وانطلق الى قومانة وانقرة وحاصرهما حصارًا شديدًا حتى احتلّها وأخرج محمّدًا ابنه وكان ملك عَرَب قد حبسه هناك . ثم حشد عَرَب الجيوش ثانيةً وزحف يريد غازي فانكسر وانهزم الى بلاد اليونان وضاع خبره .

وفي السنة المذكورة أقبل من رومية بوهيمند بن بوهيمند الفرنجيّ ووصل الى انطاكية وتولّى امرها . وثار خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضواحي انطاكية كلّها . فسخط عليه بطريركهم وأغلق ابواب الكنائس وأبطل قرع النواقيس والصلوات ريثما ردَّ جوسلين الغنيمة بأسرها .

وفي السنة ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨م) قرَّر الحلبيُّون ان يؤدُّوا لجوسلين كلَّ عام اثني عشر الف دينار خوفاً منه لئلّا يضيّق عليهم . واذ ذاك أغوى بعض اتراك حلب فريقاً من طبّاخي الفرنج ودفعوا لهم ذهباً فسقّوا جوسلين وستَّة من فرسانه سمّاً قضى على حياة الستَّة وصانت العناية الالهيَّة جوسلين وعالجه الاطبّاء. حتى تعافى فقتل الذين سقوه السمَّ وفتك باولادهم جميعاً .

وفي هذه السنة سار طغرل ارسلان الى ملطية (٢٨٨) وكانت قد انتُزعت من يده فغزا اطرافها الخارجيَّة وانقلب وضاع خبره .

وفي السنة ١٤٤٠ لليونان (١١٢٩م) وصل جوسلين الى آمد وغزا التركمان والاكراد في جبل آشوم ونهب قرى آمد حتى بابها .

وفي السنة عينها بلغ زنكي ان السلطان ينوي ان ينصب دُبَيس زعيم المدّيين اميرًا بدلًا منه في الموصل . فانحدر الى بغداد وتذلل له وأدّى له مائة الف دينار وتوسّل اليه ليؤيده في مكانه . وقدّم للخليفة هدايا وافرة كي لا يَدَع لدُبيس مكانًا يتولّاه البتة. وكان قد جرى بين الخليفة ودُبيس وقائع كثيرة حتى انضمّ الى السلطان وازدراه وسار الى بغداد وجعل يركب غاديًا رائحًا مطمئنًا مستحقرًا الخليفة . ولمّا مرض السلطان سرق دُبيس ابنه الصغير وانهزم فغزا الكوفة والبصرة والحلّة وحشد ذهبًا وافرًا وضمّ اليه عشرة آلاف فارس مضى بهم الى البرّية . وقس على ذلك حِيَلًا جمّة لا يسع هذا المؤلف الوجيز استقصاءها فاضربنا عن سردها . وقيل انه في عراك جرى بين الخليفة ودُبيس انكسر دُبيس وسقط اصحابه جميعًا وأفلت وحده وعبر الفرات على ظهر حصانه . فشاهدته عجوزٌ مدنية وقالت له بطمأنينة : هل حضرت يا دُبير ؟ اعني يا تاعس الحظ . فتبسّم دُبيس ولم يسخط عليها وقال لها : ان التاعس الحظّ هو من يتغيّب ولا يحضر ا

ودارت رحى الحرب في هذه السنة بين الفرنج والاسمعيليّين واجتاح الفرنج منهم زهاء عشرة آلاف واحتلّوا ما كان بيدهم من الحصون الكثيرة في فينيقية. ووقع رعب الفرنج في قلوب عرب سورية جميعًا . وسار الفرنج الى دمشق وضيّقوا عليها ثم فرضوا على اهاليها عشرين الف دينار في السنة جزية وتركوهم (٢٨٩) وانصرفوا. واستولى الفرنج في تلك الاثناء على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. ولم يبقَ للعرب في سورية الّا حلب وحماة وحمص ودمشق تؤدي باجمعها الجزية للفرنج. فكانوا يأخذون من حلب نصف غلّاتها حتى من الرحى التي بباب الجنان . ووجّهوا وفودًا الى دمشق أحصوا كلّ من فيها من العبيد النصارى ونقلوا كلّ من لم يشأ الاقامة مع العرب دون ان يدفعوا شيئًا من الاثمان لمواليهم. ووصلت جيوش الفرنج الى آمد ونصيبين وراس العين . وأمسى اهالي الرقة وحرّان بسببهم في ضنكٍ شديد. وتعذّر على العرب السفر من المشرق الى دمشق الّا في طريق البادية.

وفي السنة ١٤٤١ لليونان (١١٣٠م) مات تورس والي قيليقية وخلفه لاون

اخوه وناوشه بوهيمند الفرنجيّ صاحب انطاكية.

وفي ٨ اذار السنة عينها وهي السنة ٥٢٤ للعرب حدثت زلزلة عنيفة في بغداد قوّضت مساكن كثيرة. وظهرت في الموصل سحابة كثيفة صبّت وابلًا من الامطار تبعتها جمرات ناريّة هائلة هبطت من الجوّ الى الارض واحرقت دورًا شتّى مع اثاثها.

وفي هذه السنة سار قسيانس الزعيم اليونانيّ يريد غازي بن دنشمند وسلّمه حصونًا كثيرة في بلاد البنطس وتولّى قبدوقية باجمعها وحشد جيوشًا كثيفة وزحف الى قيليقية ليغزوها. وحدث ان بوهيمند صاحب انطاكية دخلها من ناحية اخرى دون ان يشعر احدهما بصاحبه. وعند ذاك اشتعلت الحرب بين الاتراك والفرنج وظلّ لاون الارمني قابعاً لم يتعرّض للخصمين. فتغلّب الاتراك واجهزوا على بوهيمند يجهلون انه الملك. امّا لاون فأغلق الثغور تجاه الاتراك وفتك بكثير منهم.

وفي السنة ٥٢٥ للعرب (١١٣٠م) قبض صاحب دمشق على دُبيس المدنيّ وأوثقه وبعثه الى زنكي (٢٩٠) صاحب الموصل واسترجع ابنه المأسور لديه.

وفي السنة ١٤٤٢ لليونان (١١٣١م) اقبل ملك اورشليم الى انطاكية وجاء اليها كذلك جوسلين من الرها فأغلق الانطاكيّون الابواب في وجهيهما حتى أبرما بقَسَم ان تبقى المدينة لابنة بوهيمند ريثما تترعرع وتتزوّج فيكون زوجها خلفاً لوالدها في انطاكية.

ودخل الامير غازي بن دنشمند قيليقية ودوّخ بعض الحصون. فتدخّل له لاون الارمنيّ وحلف ان يمنع لصوصه عن العبث في بلده. وان يؤدّي له الجزية سنةً فسنةً. لكنه أخلف في قسمه ثانيةً ولم يؤدّ له شيئاً.

وسار اسحق اخو ملك اليونان الى قيليقية وزفّ ابنته الى لاون المذكور واعطاه المَصِيصة وآطنه بدلًا من جهازها. ثم حصل بينهما نزاع وانهزم اسحق وابنه الى بلد سلطان قونية.

وتوفّي جوسلين وخلفه في الرها جوسلين الثاني. وفي تلك السنة غادر السلطان محمود مدينة بغداد وتوجّه الى خراسان. فاقبل اليه مسعود اخوه

واستعطفه وحمل امامه غطاء السرج فتلاشا. وولّاه السلطان محمود شؤون البلاد والعساكر وركب الى همذان ومات هناك بالغاً الثامنة والعشرين. فثارت الخصومة بين داود ابن السلطان محمود وبين مسعود وسلجوق شاه وطغرل وكان طغرل مع الملك سنجر عمّهم. وارسل الثلاثة الى الخليفة يطلب كلٌ منهم السلطنة لنفسه. فوافق الخليفة اوّل بدءٍ على سنجر وبعث الى البقيّة يقول: فليأتِ اليَّ مَن يوافق عليه ويدفع له كتاب الرضى فاقبله انا كذلك. ثم كتب الى سنجر يقول: اننا لن نريد غيرك ولن نسمح لاحد ان يتسلّط دونك. ولمّا بلغ مسعوداً جواب الخليفة سار الى الموصل يريد زنكي وسأله (٢٩١) ان يسعفه بمالٍ يؤدّيه للخليفة ويسلّمه لدُبيس زعيم المعدّيين ليذهب به اليه وبذلك يصنع اليه جميلاً. امّا زنكي فقال: اني ادفع خمسين الف دينار ذهباً وكلّ ما تشاء من عبيد وجوارٍ وخيل ولكني لا اسلّم دبيس اصلاً لان السلطان سنجر نهاني عن تسليمه ولا يتيسّر لي ان اخالف امره. فارتاب مسعود وخرج فاقام غربي الموصل. واغلق زنكي ابواب المدينة ورحّل جميع المساكين الذين يتعذّر عليهم ان يعيشوا في الحصار وتحصّن هو في القلعة. امّا مسعود فلم يحارب الموصل بل انحدر الى بغداد وارسل يقول للخليفة: ان ناديتم باسمي اصبحتُ صديقاً وطائعاً والّا فليس لكم عندي الّا السيف.

فبرز عساكر بغداد وتعاركوا مع عساكر مسعود فكسروا وانكسروا. وجاءت الاخبار في اثناء المعركة بان سنجر قادم الى بغداد في جيوش ضخمة. فتخوّف البغداديّون ورأى الخليفة ان مسعوداً أقوى من سنجر فعاهده وأدخله وأقامه في القصر الملكيّ واتّفق الجميع على مناوشة سنجر.

وفي السنة ٥٢٦ للعرب (١١٣١م) وصل سنجر الى همذان واحتلّها ونادى فيها باسم طغرل بن محمود وكان معه. امّا مسعود قائد جيش الخليفة فتوجّه كذلك الى همذان متتبّعاً جيوش سنجر. وارسل الى الخليفة ليذهب بنفسه الى مقاتلته. ولمّا تهيّأ للرحيل وصل الخبر بان زنكي ودُبيس المعديّ قد اتّفقا وعوّلا على النزول الى بغداد. فعاد الخليفة الى داره ليستعدّ لمحاربتهما. ثم برز في الفين من جيشه وتغلّب عليهما. وانهزم زنكي الى تكريت ودُبيس الى

سواحل الفرات . وارسل زنكي القاضي ابن شهرزوري الى الخليفة يستغفره وينتظر أمره ليذهب (٢٩٢) اليه ويتولّى شحنة بغداد من قِبَل سنجر . فقال الخليفة للقاضي : ان سنجر لا سلطنة له عندنا ولا نقبل له شحنة . واذا احبَّ زنكي مصالحتنا لزمه ان يسلّمنا دُبَيس ويمكث هو في الموصل مطمئناً والّا فاننا زاحفون اليه .

وفي الشهر الاوّل من السنة ٥٢٧ للعرب (١١٣٢م) دخل السلطان مسعود بغداد ونودي بعد الخليفة وابنه باسمه واسم سنجر واسم داود معاً : ثلاثتهم سلاطين . وزحف الخليفة المسترشد الى الموصل وحاصرها ثمانين يوماً فامتنعت عليه . وبلغه الخبر بان السلطان مسعوداً انتقض عليه فترك الموصل وكرّ عائداً الى بغداد .

امّا جوسلين الثاني فاحتلّ قلعة شبكتان وقوّضها تماماً . وزحف ايونيّ ملك اليونان ودوّخ حصن قسطونة وانتزعه من الاتراك صلحاً . واحتلّ حصنَين آخرين عنوةً . واحتلّ بغدوين ملك اورشليم الفرنجي قلعة القصير بجانب انطاكية عنوةً . وسار الى عام فاحتشد هناك الاتراك كالجراد ليقاتلوا الفرنج . وانهزم الفرنج في اوّل الامر حتى استدرجوا الاتراك الى البقاع ثم انحدروا وتصالحوا وتصافحوا وحملوا جميعاً على الاتراك حملة واحدة وضربوهم ضربةً قاضيةً حتى المساء . وتمّ ذلك عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤م) .

وفي تلك السنة ظهر جرادٌ كثير ببلد الرها . واستغاث المسيحيّون بالصفي برصوما[١] وارسلوا فاستحضروا صندوقة ذخيرته . فارتحل عنهم الجراد باعجوبة ولم يؤذِ البلد كلّه اصلاً . فضمن الروم وسخطوا وحرّضوا بيبوس مطران الفرنج ليفتح الصندوقة ويشاهد الذخيرة . لكن الرهبان أبوا ذلك فجعل الروم يستهزئون (٢٩٣) ويقولون : لا شيء في الصندوقة . واضطرّ الرهبان اخيراً ان يفتحوها في بيعة الفرنج . وحدث للحال رعدٌ هائل وتلبّدت سحب سوداء في الجوّ وهبط

١) ان برصوم هذا كان من الراهبين بالطبيعة الواحدة . وقد حرمه المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ عام ٤٥١ بحضور ستمائة وستة وثلاثين اسقفاً . وكان ابو الفرج الملطي مؤلف هذا التاريخ من مناصري ذلك الزعم .

بَرَد قتَّال ملأ الشوارع واخذ الشعب كافَّة يصرخون كيريالسون ارحمنا يا صفي الله ! اما اليونان فانهزموا واختفوا . ولمَّا انقطع البَرَد احتشد الاهالي وثابروا الصلوات ثلاثة ايَّام . ولمَّا شاهد العرب الحرَّانيون تلك الاعجوبة سألوا ان تُنقل اليهم الذخيرة لكنَّ الفرنج لم يلبُّوا سؤلهم بل ردُّوها الى الدير باكرام. ثمَّ اقبل الملطيُّون ونقلوها اليهم في الاناشيد والصلوات . ورُبط فم الجراد ولم يؤذِ الزروع اصلًا .

وفي ٢٣ ايلول احرق الرعد سبعة ثيرآن وصبيًا . واحرق صبيًا آخر في سينادو . وحدثت زلزلة قويَّة في ارمينية اجتاحت مدينة دكودوف . وحدث في ملطية شتاء قاسٍ وانثلجت ثلجاً أحمر .

وفي السنة ١٤٤٦ لليونان (١١٣٥ م) أقبل من ايطالية ريموند دي فوتيرس وزفَّت اليه بنت بوهيمند صاحب انطاكية وتولَّى امارتها . وفي السنة عينها مات بغدوين الثاني ملك اورشليم وزُفَّت ابنتهُ الى فُلك فخلفه في مكانه .

وفي السنة عينها سيَّر زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغداد مع مفاتيح المدينة وبعض نسائهِ بمثابة ودائع . وأقسم بالطاعة فحاز الرضى والقبول . واصطلح الخليفة والسلطان سنجر كذلك وارسل اليه الخليفة تاجاً وطوقاً وحصاناً بنعلين ذهبيين . فنهض سنجر وقبَّل حوافر الحصان وأبدى الطاعة للخليفة .

وفي تلك الغضون خرج ابن جبَّارا جاثليق النساطرة (١١٣٣ — ١١٣٥) ليلًا الى الحديقة فوطئ حيَّة لدغته ومات . وذكر بعضهم ان الحيَّة لم تلدغه لكن الرعب قضى على حياتهِ .

وفي السنة ذاتها ارسل الخليفة طوقاً ذهبيًا الى الامير غازي بن دنشمند (٢٩٤) دلالة على العبوديَّة وصولجاناً ذهبيًا واربعة بنود سوداء وطبولًا تدق امامه وسمَّاه الملك غازي . ولمَّا وصل السفراء شاهدوه مريضاً وما عتم ان مات. فاقاموا ابنه محمَّداً خلفاً له وعادوا . وهذا الملك محمَّد جدَّد قيسارية قبدوقية التي كانت قد تهدَّمت منذ امدٍ طويل واتخذها عاصمةً له . ثم سار الى ملطية متخوِّفاً اتفاق الزعماء مع اخيه ونقلَ معه الهدايا للأحرار ثم انقلب فوثب الى اخيه بياجان وقتله وغزا دَولتُ اخوه الثاني بلاد ملطية .

وفي الشهر السابع من هذه السنة ألغى الخليفة المسترشد المناداة باسم السلطان مسعود . وحشد سبعة آلاف عسكري لمقاتلته وقد بلغه ان ليس مع السلطان الّا الف وخمسمائة عسكريّ لا غير . لكنه بعد هذا اصبح مع الخليفة خمسة آلاف ومع مسعود خمسة عشر الفاً واصطدم الجيشان فانكسر جيش الخليفة واعتُقل الخليفة ذاتُه . ونُهبت الثروة التي كانت معه وهي سبعون حمل بغل ذهباً وفضّةً وخمسة آلاف حمل جمل واربعمائة حمل بغل اقمشةً وثياباً وسائر لوازم الطريق في جملتها اربعون الفاً من عمامات وطرابيش واقمصة باكمامها كاملة الخياطة. ثم أمر مسعود ان ينادى في الجيش بان لكم الاموال والامتعة ولي الدماء . وانّ من قتل رجلًا قتلتهُ بدلًا منه . ولذا لم يُقتَل الّا خمسة اشخاص فقط . ونادى المنادي كذلك بان من يبقى ههُنا من حزب الخليفة يُقتَل . فازدحم البغداديون وانهزموا عراةً حفاةً يمنةً ويسرةً . وارسل السلطان مسعود يقول للخليفة ان يكتب كتاب الرضى ويصرّح للبغداديين بانه متمتّع في بحبوحة من العيش لديه وانه لن يتأخر عن القدوم اليهم . غير ان البغداديين عرفوا ان الخليفة قد كتب ما كتب (٢٩٥) خوفاً . فأحدثوا ضجّة قُتل في اثنائها نحو مائة وخمسين من العامّة ثم هدئوا كيفما كان .

واخذت الزلازل تتتابع بغداد في تلك الاثنا. كلّ يوم خمس مرات او ست مرّات . فارسل السلطان سنجر سفيرًا الى السلطان مسعود في رسالتين الاولى سرّية ضمّنها سبّاً وشتماً لانه لم يفتك بالخليفة في اثنا المعمة.والثانية مفتوحة يقول فيها : اذا طالعتَ هذه السطور يا بُنيَّ غياث الدنيا والدين مسعود فاقصد امير المؤمنين وقبّل الارض امامه واستغفره عن ذنبك . اذ لا يسعني الصبر عمّا يحدثه الله سبحانه بسبب ذلك من آيات السما. والارض : كالرياح والصواعق والبروق والزلازل الارضيّة وقد أمسى العرب قاطبة حزانى والتغت الصلوات وأُغلقت ابواب المساجد في بلاد العجم وسنار جميعاً. أعِدْ اذن الخليفة باكرام الى كرسيّه دون تعلُّل او تبجّح . وادفع له دُبَيس ليجري به ما شاء لانه مسبب هذه الفتن بأسرها .

ولمّا اطّلع مسعود على ذلك كلّه أمر فنشروا خياماً كبرى واقاموا الخليفة

هناك . وحملوا امامه الاغطية نحو نصف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكيّة الكبرى واستغفره عن ذنبهِ . وقدّم له دُبَيس موثقاً ومعه سيف وكفن وقال : ان هذا هو الذي اجترم كلّ هذه الشرور وهٰهنذا اسلّمه لك فمُر ان يُعاقَب حسب جرمه . ألّا ان الخليفة أدرك ان تلك العبارات صادرة من الفم لا من القلب فغفر لدُبَيس . ولذا اضطرّه مسعود ان يذهب الى بغداد . لكنّ الخليفة أبى الذهاب وقال : لستُ اذهب إلّم تأتِ معي. فقال مسعود اني مرسلٌ معك أمراء يخدمونك لتذهب بكل اجلال وتجلس في دارك. لكنّ الخليفة لم يرضَ لخوفه من ان يضعوا له كميناً في الطريق ويبطشوا به سرّاً اذ لا يسعهم (٢٩٦) ان يقتلوا جهراً إمام دينهم.

واعتزم مسعود ان يتوجّه الى اذربيجان ليقاتل داود ابن اخيه وتوجّه معه الخليفة كذلك . ثم ارسل سنجر وفوداً الى مسعود من مراغة وهو عند بابها وحرّضه ان يردّ الخليفة الى بغداد دون تريّث . وكان في جملة اولئك الوفود بسبعة عشر من الاسمعيليّين . ويوم الخميس وقت الظهيرة ١٦ الشهر الحادي عشر عام ٥٢٩ للعرب (١١٣٤م) وثبوا اليه وهو يطالع كتاب القرآن في الخيمة وفي ايديهم السكاكين واجهزوا عليه وعلى ثلاثة من حشمهِ. فركب مسعود واحدق بالخيام وفتك بالقتلة . قيل ان سنجر لم يكن عنده علمٌ بالاسمعيليّين لكنّ الحقيقة هي انه هو الذي ارسلهم دون علم مسعود .

بعد المسترشد الراشد ابنه

تولّى سنةً واحدةً . ذلك انه على اثر قتل ابيه المسترشد ارسل السلطان سنجر الى شحنة بغداد يأمر ان يجتمع الاقطاب والقضاة ويبايعوه بالخلافة ويجلسوه مكان أبيه . فنفّذوا امره . وفي تلك الاثناء غدر دُبَيس بن صدقة بالسلطان مسعود فكتب رسالة الى زنكي يقول : اني مترقب الفرصة لاغادر هذا واتوجّه اليك واحشد من الجنود المعدّين ما يقابل رمال شاطئ البحر ثم نتّفق معاً ونفعل مع مسعود فعلاً يخلّد ذكره الى الاجيال التالية . وقد وقعت تلك الرسالة بيد من أوصلها الى مسعود . ولمّا اجتمع الاقطاب لديه يوماً

وسقاهم ماء السكّر كالعادة ونهضوا ليودّعوه اشار الى دُبيس ان يتربّص وقال له ان لي معك كلمةً سرّية . وتوقف ونهض مسعود ودخل الخيمة الداخليّة ودفع رسالةً الى عبدٍ ارمنيّ حاملٍ سيفاً وقال له : امضِ فادفعها الى دُبيس وعندما يبدأ قراءتها اضربه من ورائه (٢٩٧) وافلق هامته. فخرج العبد وشاهد دُبيس يضرب باصبعه في الارض ويقول : الموت خيرٌ لي من حياةٍ مضطربةٍ . فقدّم له الرسالة فاخذها وفتحها وجعل يقرأها ففاجأه العبد بضربةٍ في رقبته من ورائه وحزّ هامته . وهكذا انتهت حياة هذا الرجل المراوغ المصارع . وتمّ قتلُهُ بعد خمسة وثلاثين يوماً مرّت على قتل الخليفة المسترشد خصمه .

وفي السنة ١٤٤٧ لليونان (١١٣٦ م) وهي السنة ٥٣٠ للعرب أخلف ميخائيل الارمني بوعده للفرنج اذ كان قد سبق فباعهم ايامَ بلك قلعة جرجر وخرج عنها فانقلب وانحرف عنهم وجعل يغزو قراهم . فادركه الاتراك يوماً في قرية كور زيزونا على ساحل الفرات واحدقوا به من كلّ صوب ولم يستطع ان يفلت منهم . فألقى بذاته من علوّ الصخر الى النهر وكان متمنطقاً بدرع حديديّ فغرق في الماء. ثم طفا وتقلّص الى جهة النهر الثانية ولم يغرق ولم يُلقِ من يده الترس على ما قيل . وبعد هذا تخلّى لجوسلين الثاني عن مدينة جرجر وأخذ بدلًا منها موضعاً يقال له سَفرس . ثم اشتراها باسيل اخو جاثليق الارمن من جوسلين . فحشد ميخائيل العسكر وسار الى الكيسوم وغزا ضاحيتها فترصّد له الفرنج وفتكوا به . ثم توجّه دغا باسيل يريد لاون في قيليقية وصاهره . وحشد بعض الارمن وانقلب ليناوش الفرنج في كفر زمان فتلف الكثير من اصحابه .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اشتدّ البرد خصوصاً في آمد ففرّت الى المدن صنوف الطيور الجبليّة كالحجل وما شاكله وحيوان القفر كالغزال وغيره . وأمر الحاكم جميع الاهالي ان لا يؤذوها . فجعلوا يقدّمون لها القوت حتى شهر نيسان ثم سرّحوها. قيل ان تلك الطيور والحيوانات جعلت منذ الخريف تدخل المغاور كأنّها سبقت فشعرت بحدوث البرد منذئذٍ ممّا يدلّ على (٢٩٨) انه تعالى قد

غرس في طبائع الحيوان معرفة تقلّبات الفصول قبل حدوثها .

وفي هذه السنة سيّر السلطان مسعود الى الخليفة الراشد سفيرًا يطالبه بثلاثمائة الف دينار سبق فوعده بها والده المسترشد يوم كان عنده . وثلاثمائة الف دينار غيرها يجب ان يجمعها من البغداديّين مساعدةً له ويضمّ اليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة . فاجتمع الخليفة باقطابه وشاورهم في الأمر وانتهوا بان يحشد الخليفة جيوشه وينازل مسعودًا . فارتضى الخليفة وفتح خزائنه واخرج ذهبًا وافرًا واستخدم عساكر كثيرة . ثم ارسل يقول للسفير : انّما وعد ابي ما وعد من الذهب لاجل نجاته ولكنكم قتلتموه . وبناء عليه لا بدّ لي من الانتقام وليس لكم عندي الّا السيف . وما ان سمع السفير هذا الكلام حتى ترك الخليفة وانقلب عائدًا . وجعل الخليفة يدأب في بنيان الأسوار وترميم الأبراج . واقبل يومئذٍ زنكي صاحب الموصل لينجده . ووصل كذلك داود ابن اخي السلطان مسعود . وحاول الخليفة ان يلغي المناداة باسمه وينادي باسم داود لكن زنكي أبى وقال : لا تتحرّشوا بمسعود بل قولوا لداود ان يذهب ويقابل عنه فاذا تأيّد نادينا باسمه . غير ان الخليفة رفض قول زنكي وألغى اسم مسعود ونادى باسم داود سلطانًا . فارسل مسعود الى الخليفة يقول : قد اصبحنا في غنىً عنك وأقمنا خليفةً موافقًا لنا من سلالة عليّ فابحث عن مكان آخر واخرج وامضِ حيث شئت .

اضطرب الخليفة وأرسل الى بهروز امير تكريت وأخبره انه متوجّه اليه ليتحصّن في قلعته . فكتب له بهروز : انا عبدٌ لمسعود ولا سبيل لي ان اخالفه اذا طلبك مني . فاضطرّ الخليفة ان يُعدّ العدّة لمحاربة مسعود وبعث بخيامه الى ضواحي بغداد وابقى عنده زنكي وسائر الاقطاب . ووصل اذ ذاك (٢٩٩) الخبر بان مسعودًا قادمٌ في جيوش كثيفة . وخاطب زنكي الاقطاب فقال : عرفتم ما جرى للمسترشد بسبب انتقاض اقطابه فلم يستفد هو ولا هم شيئًا . فقولوا لي إذن : هل نيّتكم مستقيمة ؟ وهل انتم مستعدّون بطيبة خاطركم لمحاربة السلطان مسعود ؟ اني اريد ان اعرف ذلك والّا فليرجع كلٌّ الى بلده وليُضرب عن التصادم والنهب والحرب وليكتف كلٌّ بما له .

انحم الاقطابَ خطابُ زنكي ولاذوا بالصمت وجعل كلّ واحد يحدّق في صاحبه وتحقّق لزنكي خداعهم وأخبر الخليفة . وبعد هذا نهضوا جميعاً ودخلوا المدينة ونصبوا خيامهم داخل السور وتركهم زنكي وشأنهم وعاد الى الموصل . ولم يرَ الخليفة الّا ان ينهزم معه اذ تعذّر عليه ان يثبّطهم عن الحرب . ودخل اذ ذاك السلطان مسعود بغداد وأحسن الى اهاليها ونهى ابتزاز ايّ بيت كان . ثم اجتمع بكلّ الاقطاب وعرض عليهم صكّ الخليفة الراشد مكتوباً بخطّ يده وفيه يصرّح قائلًا : اني يومَ احشد الجنود واخرج الى مبارزة امير من امراء السلطان مسعود اصبح خليعاً عن الخلافة . وكان حاضرًا في حملة اولئك الاقطاب ثلاثة شهود ممّن امضوا ذلك الصكّ بتواقيعهم وأيدوه بشهادتهم . وبناء عليه خلعوا الراشد شرعاً وذكروا من الجملة شكاوى اخرى بحقّه منها انه خرق حرمة جواري ابيه وعاقر الخمرة واعرض عن الصلوات ولعب بالكعاب وتمادى في الظلم والغدر وسفك دماء زكيّة .

(له صلة)

الورد وماء الورد بدمشق

بقلم حبيب زيّات

من خصائص دمشق الورد والماء الذي يستقطر منه قال العمري في كلامه على دمشق : «والى وردها وبنفسجها النهاية حتى انه عطّل وردها وما يستخرج من مائه ما كان يذكر من جور ونصيبين وماء الورد ينقل الى غالب البلاد»[1] وقد اشار بعض زوّار الفرنج الى هذه المزيّة فقال: «ورد دمشق لا نظير له وله عطر يفوق ما عندنا»[2] وقال آخر: «بدمشق ورد ابيض لم ارَ له مثيلًا.»[3]

ولم يذكر البدري من انواع الورد بدمشق الا ستة فقط واستثنى الاسود ولكنه عاد فعد الاسود منها وهي : الابيض والاصفر والاسود والقحابي والجوري والأصفر المطبق والحق بها اخيرًا الورد النسريني[4] وضرب صفحًا عن الاسود فلم يصفه بشي. وهو ما يدل على انه لم يكن معروفًا بدمشق ولذلك قال ابن الساعاتي الدمشقي في مغنية سوداء تدعى وردة :

سوداء حالكة تُلقّب وردة   وعجيبة الايام ورد اسود[5]

واقتصر البدري من تعريفه على ايراد بيتين للشريف الرضي في وصف ورد اسود :

وورد اسود خِلناه لما   تضوّع نشره ملك الزمان
مداهن عنبر غضّ وفيها   بقايا من سحيق الزعفران[6]

وروى السيوطي البيتين الآتيين فيه لابي احمد الطرازي :

١) مسالك الابصار ، خزانة باريس ٢٣٢٥ ، ص ١٦٦
٢) JEAN THENAUD : *Voyage d'Outre Mer*. Paris, 1888.
٣) *Voyage de Ludovic di Varthema*. Paris, 1888, p. 15.
٤) محاسن الشام ١٠٤–١٢٠
٥) ديوانه ١ : ١٢٤
٦) محاسن الشام ١١٦

فه اسود ورد ظل يلحظنا من الرياض باحداق اليعافير
كأنه وجنات الزنج نقطها كف الامام باصناف الدنانير (١

ولعله لم يوجد في الحقيقة الا في مخيلة الشعراء.

والقحابي من الورد ما كان ظاهره اصفر وباطنه احمر كما يستدل من قول ابي بكر الخالدي :

وردة بستان قحابية زينت من الحسن بنوعين
باطنها من قشر ياقوتة وظهرها من ذهب عين (٢

ولكن جاء في كتاب «شد الظهر لذكر ما يحتاج اليه من الزهر» ليوسف ابن عبد الهادي المعروف بابن المبرد الدمشقي المتوفى سنة ١٥٠٣/٩٠٩ وهو من مخطوطات خزانتي بقلم مؤلفه : الورد القحابي منه اصفر الداخل والخارج. ومنه احمر الداخل والخارج . ومنه احمر الداخل اصفر الخارج . وكله لا ينتفع به غير النظر » ولعله وهم في عده النوعين الاولين من الورد القحابي لان القحابي ما كان ذا لونين . . وما كان لوناً واحداً كالذين وصفهما كان احق ان يُعدّ في جملة الاصفر والاحمر . وقد فاته ما كان اصفر الباطن احمر الظاهر اي عكس النوع الذي شبّهه الخالدي بالذهب الاصفر فوق الياقوت الاحمر. وقد اشار الى مثله ابن المعتز بقوله :

وذي لونين نشر المسك فيه يروق بحمرة فوق اصفرار
كمعشوقين ضمهما عناق على حدثان عهد بالمزار

فجعل الحمرة فوق الصفرة.

واجود الورد بدمشق واذكاه عطراً هو الجوري نسبة الى جور مدينة في فارس . وربما قيل له النصيبيني نسبة الى نصيبين ويعرف اليوم بدمشق بالورد البلدي وهو احمر دائماً . وفي الكامل لابن الاثير انه كان يسمى الورد « الكامكاري » نسبة الى دهقان بنواحي مرو . و«القصراني» نسبة الى قصران قرية بالري و« الجوري » (٨ : ٣٧)

واكثر ما كان يُغرس الورد قبلاً في بلدة الزبداني ولذلك سمّاها البدري

١) حسن المحاضرة ، طبعة الموسوعات ٢ : ٣٢٩
٢) محاسن الشام ١١٧

« قلعة الورد » . ومثلها المزّة وهي معدنه قديماً اشتهرت بكثرة ما يُستخرج منه فيها . وفيا عدا هذين البلدين كان الورد كما وصفه احد من زار دمشق في النصف الاول من القرن السابع عشر وهو الاب برناردن سوريوس شديد الانتشار في البساتين والحقول والجبال يعبق الهواء بعرفه الطيب وله محصول وافر حتى انه يباع حمل جمل منه بغرش واحد (اي بما يقرب وقتئذٍ من قيمة فرنكين ذهباً patagon) قال :« وسكان الجبال يحملون منه يومياً الى السوق نحواً من مئة جمل ويكدسونه اكداساً كالتبن . وللاتراك (اي المسلمين) شغف به شديد يزينون به عمائمهم وغرفهم وفرشهم وموائدهم وطاقات منازلهم ويبسطونه في بيوتهم في ارتفاع ثلاثة او اربعة اقدام وينغمسون فيه الى حد اعناقهم ويتقلبون فيه بغاية من التلذذ والطيب »[1]

ومن السنين التي كثر فيها جني الورد ورخصت اسعاره حتى استرعت نظر المؤرخين سنة ١٣١٩/٧١٩ قال المفضّل بن ابي الفضائل : « في ربيع الاول أبيع الورد بدمشق كل عشرة ارطال بدرهم ونصف . وهذا شيء لم يعهد من رخص الورد خصوصاً في نيسان »[2]

وكان لزهر الورد او لازراره كما يقولون تجارة واسعة اضمحلت اليوم ولم يبقَ الا ظلّ منها ضئيل « يحمل زهر الورد المزّي الى الهند والى بلاد السند والى الصين والى وراء ذلك ويسمى هناك الزهر . ومما ارّخوه انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى « شور الزهر » طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة . اباع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٦/٧م) وهذا لم يسمع بمثله »[3] وكان لماء الورد الدمشقي شهرة طائرة ايضاً في اوروبة حتى كانوا يحرصون على تقليده فيها لرغبة الملوك والعظماء به [4]

1) *Le Pieux Pélerin au voyage de Jérusalem*, par le R. P. Bernardin Surius. Bruxelles, 1666, p. 337.

٢) النهج السديد ، باريس ١٩٢٥ ، ص ١١٨

٣) نخبة الدهر لشيخ الربوة . طبعة بطرسبرج ١٩٤-١٩٨

4) W. Heyd : *Histoire du Commerce du Levant*. II, p. 458.

ومن غشّ بيع ازرار الورد ما حكاه ابن الحاج قال : « يشترون الورد فيزيلون عنه بعض الورق الذي دوقه فيصغر الزر بذلك ويبيعون ما اخرجوه من الورق بزيادة في الثمن للمتسبّبين في الناطف وغيره ويبيعون ما بقي منه على الزر بسره صحيحاً قبل ان يؤخذ منه شيء. »[١]

واهم ما كان يغرس الورد لاجل استقطاره واستخراج مائه المشهور. وكان ما يُجلب من مائه للقاهرة ومكة وغيرهما من البلاد يُستخرج خصوصاً في الزبداني[٢] وفي المزّة . وقد وصف شيخ الربوة طريقة اخراجه في الكركات في المزّة فقال : « تُلقى حُراقته على الطرقات وفي دروبها وازقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون الذّ من المسك الى مدة انقضاء الورد... ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك »[٣]

وبعد هذه الشهادة الصريحة يُستغرب جداً قول ابن المبرد في كتابه المخطوط «شد الظهر» المذكور آنفاً : ومنه الاحمر ايضاً الجوري ويقال له المزّي وهو شديد الحمرة ولا رائحة له ولا يعمل منه شيء. غير انه يُيبَّس ويعمل منه زر ورد » فهل اختلفت غراس المزة في القرن التاسع للهجرة ؟ وعنده ان ماء الورد كان يستخرج في زمانه من الورد الابيض المضعف . قال :« وهو كثير الورق طيب الرائحة لطيف ابرد والطف من الاحمر . ويستخرج منه ماء يقال له ماء الورد بلدي جيد للاورام الحارة والرمد الحار ».

ومن القاهرة كان يرسل ماء الورد على الظهر الى السويس ويصل بعد ثلاثة ايام فيُحمل من السويس في سفن صغار تسمّى جَلبات الى جدّة وينقل منها في المراكب الى قاليقوط في الهند في جملة البضائع التي كانت تشحن اليها لقاء ثمن ما كان يرد من الهند من الافاويه والعطور »[٤]

وكان استعمال ماء الورد والتطيّب به قد عمّ الشرق حتى بلغ زيلع ومقدشو

---

١) كتاب المدخل ٣ : ١٢٥

٢) محاسن الشام ١١٨

٣) نخبة الدهر ١٩٤

٤) *Historia do Descobrimento e conquista da Yndia pelos Portuguezes.* (Journal Asiatique, Juillet-Septembre 1920, p. 18).

من بلاد البرارة السودان. ولما زار ابن بطوطة مقدشو قال: «خرج بعض الفتيان (من دار السلطان) وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب عليّ وعلى القاضي»[١]

ولا شك ان استعمال ماء الورد كان شائعاً بدمشق قبل قدوم العرب والامويين. وكان في عهد العباسيين يُصبّ على ايدي الاضياف والمترفين وهو ما ذكره الصابئ في كلامه على جلساء الوزير ابي الحسن علي بن الفرات وكتّابه اذا انتهوا من الطعام. قال: «ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون ايديهم والفراشون قيام يصبّون الماء عليهم والخدم وقوف على ايديهم المناديل الدبيقية ورطليات[٢] ماء الورد لمسح ايديهم وصبّه على وجوههم»[٣]

ووصف ابن مسكويه اجتماع البريدي بياقوت سنة ٣٢٤ فقال: «انزله داره وخدمه بنفسه وقام بين يديه الى ان طعم وغسل يديه فناوله الماورد والمنديل وبخّره بيده.»[٤] وعدّ ابن الحاج هذه العادة في زمانه من البدع فقال: «من البدعة بل المحرّم ما يفعله بعض الناس من غسل الايدي بماء الورد وتنشيفها بالمناديل والفوط الحرير»[٥]

وحكى الاب برناردين المذكور آنفاً ان اهل دمشق اعتادوا غسل رؤوسهم ولحاهم وايديهم بماء الورد وتقديمه لضيوفهم في جملة ما يخصونهم به من انواع الاكرام والالطاف.

وقد ضرب المتنبي ماء الورد مثلاً للخلف يقوم مقام السلف فقال في مديح علي بن محمد بن سيّار بن مكرم التميمي:

فان يكُ سيّار بن مكرم انقضى   فانك ماء الورد ان ذهب الورد

ولمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي جزء سمّاه «عرف الند في ما قيل في الورد»[٦].

---

١) رحلته ١: ١٥٢

٢) الرطلية اناء يسع رطلاً كالالفيّه المعروفة اليوم بدمشق لاشتمالها على مقدار الف درهم وقد وردت قديماً جداً بهذا المعنى كقول الجهشياري: دعا له برطلية جُعلت بين يديه (كتاب الوزراء والكتاب ٢٦١) وقول ابن مسكويه: وحمل اليه صينية اخرى فيها رطلية بلور فيها شراب مطبوخ عتيق» (تجارب الامم ٥: ٢٥٩).

٣) تاريخ الوزراء ٢٤٠

٤) تجارب الامم ٥: ٤٤٣

٥) المدخل ١: ١٢٢

٦) الفلك المشحون في احوال محمد بن طولون ٤١

دار البطيخ بدمشق

ورسوم الفواكه والبقول فيها وفي دار الطعم

وصفنا دار البطيخ سنة ١٩٢٩[1] ونبهنا على مكانها بين اسواق الخضارة ولا بأس ان نعيد الكرة عليها ونضيف الى هذا الوصف ما وقفنا عليه بعد من من الفوائد والنوادر. وقد اخفق جهدنا في البحث عن الزمن الذي دخلت فيه هذه التسمية في اللغة ولا نشك انها كانت اموية قبل ان تصبح عباسية وتعم سائر البلاد والامصار. ولعلها اول ما بدأت بدمشق لكثرة ما كان يزرع في ضواحيها وبرّها من اصناف البطيخ وشدّة اقبال الناس على التبرّد به في فصل الحرّ ومن دمشق انتقلت الى مدن الشام كحلب مثلاً وقد نبّه البشاري المقدسي في كتابه احسن التقاسيم على ان حلب لها سبعة ابواب احدها باب دار البطيخ (١٥٥) ولما بنى الخليفة جعفر المنصور بغداد اقام فيها دار البطيخ بين اسواق المدينة في درب الاساكفة ودرب الزيت ودرب العاج ثم حُوّلت في ايام المهدي الى الكرخ[2]. واشتهرت دورها ايضاً في البصرة والكوفة وسُرَّ من رأى وتخطت العراق الى بلاد فارس وخراسان ونشأت في كل مكان حتى شاهد البشاري في الري داراً للبطيخ عند الجامع (٣٩١).

وندر ان تنسب هذه السوق الى غير البطيخ من الفواكه نظير دار التفاح بمصر « وهي فندق كان تجاه باب زويلة ترد اليه الفواكه على اختلاف اصنافها وبها حوانيت ما بينها مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس »[3].

وغلب على العامة لفظ « دار بطيخ » باسقاط لام التعريف على سبيل التركيب المزجي. قال الثوري في كلامه على الاهواز: « نهر البط نهر كانت عنده مراع للبط فقالت العامة « نهر بط » كما قالوا دار بطيخ »[4]. وقد جمع

١) المشرق ١٩٢٩ / ١٠ ص ٧٦١-٧٦٤

٢) معجم البلدان لياقوت ٢: ٥١٧ ...

٣) الخطط للمقريزي، طبعة النيل ٣: ١٥٢

٤) فتوح البلدان للبلاذري، طبعة ليدن ٣٨٤

ابن لنكك بين اللفظين المركب المزجي الغير المنصرف للعلمية والمضاف حيث قال يهجو ابا الهيذام كلاب بن حمزة :

انت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على اسم حمزة وصفاً غير تشنيع
كدارَ بطيخَ تحوي كل فاكهةٍ وما اسمها الدهرَ الا دارُ بطيخ(١)

وممن استعمل مرة المركب المزجي ياقوت في معجم البلدان في كلامه على قنطرة « دار بطيخ » بدمشق (٢ : ٥٨٩).

ومع اختصاص هذه الدار باسم البطيخ كانت تشمل ايضاً كل الفواكه بالاجمال. ولما مدح ابن الرومي ابا الصقر اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد بقصيدة نونية طويلة اولها :

أجنتْ لك الوصل اغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان
غصون بانٍ عليها الدهر فاكهةٌ وما الفواكه مما يحمل البان

سمى الناس هذه القصيدة « دار البطيخ » لكثرة ما فيها من ذكر الفواكه. قال ابن الطقطقي: وكان الموضع الذي تباع فيه الفواكه يسمى دار البطيخ[٢].

وفي كتاب الامثال للثعالبي ان « دار البطيخ تباع فيها جميع الفواكه والرياحين وتنسب الى البطيخ وحده »[٣]. واغفل ذكر البقول فيها في جملة الكثيرين الذين لم يشيروا الى شي. منها واوحد من نص على بيع الخضراوات فيها شمس الدين محمد بن ابرهيم الجزري في كتابه «تاريخ حوادث الزمان وانبائه» وعدّ منها الخيار والقثا. والقرع واللوبيا والثوم والبصل والخشخاش والحمص الاخضر وغير ذلك والقنبيط والقلقاس وذكر الفول الاخضر في جملة بواكير الفواكه التي تدخل الدار اولاً. ويظهر ان بيع هذه البقول كان في « ارض » الدار كما قال : « فكانت من ثم دار البطيخ سوقاً عامة للاثمار والازهار والخضراوات كالسوق المعروفة اليوم باسم هالّ (halles) وكان في ما عداها دار اخرى للبقول خاصة كما يؤخذ من قول الصفدي «ابطل الملك العادل نور الدين المكوس والمغارم كدار البطيخ ودار البقل ...»[٤] وسمى ابن القلانسي هذه

١) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ٢ : ١٢٣

٢) الفخري ٢٢٩

٣) كتاب الامثال ، خزانة الجامعة الاميركية ببيروت ، رقم M S 398.9 T. 35 ص ٣٩٩—٤٠٠

٤) دار الكتب المصرية رقم ٩٩٥ ، المجلد الثالث ٤٦٦

الدار «عرصة البقل» في كلامه ايضاً على ابطال هذه المكوس سنة ٥٥٣/١١٥٨[١].

وكان لبيع الفواكه والبقول مراكز اخرى تباع فيها الفواكه والبقول طول النهار «بخلاف دار البطيخ فانها من بكرة الى الثانية وتنفض» وعدّ الجزري هذه المراكز في المدينة وهي: «مركز الصالحية. والعقيبة. وحكر السماق. وزاوية الشيخ ثابت. وميدان الحصا. وباب الصغير اول الشاغور. والباب شرقي. وباب توما. وعند المدرسة الزنجبيلية. ومسجد القصب وغيره»[٢]

واكثر ما كانت البيوع في الدار بالمناداة عليها كاليوم في كثير من المدن الشامية. وفي هذه الدار اكتسب الوأواء الشاعر الدمشقي اول شهرته قال الثعالبي «من اعجب شأنه ما اخبرني به ابو بكر الخوارزمي قال: كان الوأواء منادياً في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه»[٣] ومن بواعث الاسف ان تكون فاتتنا لذة معرفة الفاظ هذه المناداة العامية وما كان يُرتجل فيها ويظهر انها كانت لا تخلو من بعض التحرش بالحرفاء والتعريض بالاحزاب الدينية والسياسية المتعادية وهو مما يستفاد من قول ابن المبارك «من اراد الشهادة (اي الموت شهيداً) فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل: رحم الله عثمان بن عفان»[٤] ونظيره قول ابي عمر الهذلي «قلت لرجل من اهل الكوفة: خير موضع بالكوفة اين هو؟ قال: مسجد الجامع. قلت: وسوء موضع عندنا دار البطيخ. فلو قال رجل في خير موضع عندكم «رحم الله عثمان» قُتل. ولو قال في سوء موضع عندنا «رحم الله معاوية» قُتل. فشر موضع عندنا خير من خير موضع عندكم»[٥]

وللمنادين في كل عصر ومصر خوارق وفواحش في الصياح والجلبة تصم الاذان وتثقل على الطباع ولذلك قال سعيد بن المسيَّب يعني بغداد «ان الله اذا ابغض عبداً جعل رزقه في الصياح... اما سمعت الى اهل دار البطيخ والملّاحين ودويّهم»[٦].

---

١) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٢-٣٥٣
٢) تاريخ الجزري رقم ٩٩٥ ، المجلد الثالث ٤٦٦
٣) يتيمة الدهر ، طبعة دمشق ١: ٢٠٥ ٤) تاريخ بغداد للخطيب ١: ٤٧
٥) تاريخ بغداد ١: ٤٧ ٦) عيون الاخبار لابن قتيبة ١: ٢٥٣

وكان للسلطان في دار البطيخ حقوق ومكوس على كل مبيع فيها . وقد فاتنا علم شيء مما كانت عليه في الخلافتين الاموية والعباسية فلا ندري هل كانت جائزة كاكثر الضرائب السلطانية . وكان استيفاؤها يقتضي طبعاً تعيين ديوان خاص بها لم يرد له ذكر في ما وقفنا عليه الا في ما رواه الجزري في حوادث سنة ٦٩٧/٩٨–١٢٩٧ قال بلهجته العامية « فيها انتقم الامير سيف الدين جاغان من نائبه نائب الشد بدمشق جمال الدين الجرتاني والعلم ابن العسال مستوفي دمشق ومن ديوان دار البطيخ وانتقم منهم غاية الانتقام واخذ جميع ما يملكوه »[1] ومن كتبة هذا الديوان « الاديب الامشاطي احمد بن عثمان قيم الشام في نظم الزجل ... كان كاتباً في دار البطيخ وتوفي سنة ٧٢٥[2] (١٣٢٥ م)

واختصت وظيفة استيفاء رسوم الدار في آخر عهدها بارباب السيوف « يولّى بها اجناد بتواقيع من النائب بدمشق وتسمى هذه الوظيفة « شدّ دار البطيخ والفاكهة » وهي معدودة في جملة الشدود الصغار »[3] ولم نوفق للعثور على صورة هذا التوقيع في جملة ما نقله العمري والقلقشندي والصفدي من صور الولايات السلطانية ومناشيرها في دولة المماليك

ومن الشقاء انه لم يتفق لاحد من المؤرخين والكتاب تفصيل مقادير الضرائب الموضوعة على الفواكه والبقول بدمشق في احدى الدول التي تعاقبت على المدينة لقلة احتفالهم دائماً بمثل هذه الشروح والتفاسير التي لم يكونوا

---

١) تاريخ الجزري ، باريس ٦٧٣٩ ص٢٤١ ٢) شذرات الذهب لابن العماد ٦ : ٦٦

٣) صبح الاعشى للقلقشندي ٤ : ١٨٨ ، ويراد بالشد في لغة الدواوين قديماً المشارفة والمراقبة اي ما يقرب من معنى « تفتيش » اليوم ولم ينقل في معجمات اللغة بهذا المعنى . وهو عندهم دون « النظر » او النظارة ومن بديع تورية ابن الوردي قوله في مليح نصراني :

قال زنار خصره كم كذا ترجع البصر قلت لا تنفرد به لك شد ولي نظر

(روض الآداب للحجازي ، خزانة المدرسة الاحمدية بحلب رقم ١١٧٠)

ويظهر انه وضع في الاصل لتقوية الضعيف من اعمال الديوان اخذاً من قولهم : شد منه اي عضده وقواه . وجاء بهذا المعنى في لغة القرن الثالث للهجرة وهو قول الوزير ابي الحسن علي بن الفرات : ناحية كذا . . . عاملها ضعيف ينبغي ان يشد بمشارك او مشارف (تاريخ الوزراء للصابي ص ٩) ويقال للعامل فيه الشادّ وربما قيل المُشِدّ مع انه لم ينقل اشد بمعنى شد . ولكن روى الزمخشري في الاساس : رجل شديد مشِدّ (١ : ٤٨٢)

يقيمون لها وزناً ولا يعرفون لها ضرورة . ويغلب على الظن ان فتنها بدأت تزداد منذ استيلاء الاتراك والاكراد على دمشق لتفاقم نفقاتهم وافتقارهم الى الاموال حتى لم يتحرجوا من استخراجها من ضمان الفجور والخمور والقيان[1]

وكان من جملة هذا الضمان ايضاً ضرائب دار البطيخ وقد حفظ لنا شمس الدين الجزري اسم احد ضمّان الدار سنة ٧٣٦/١٣٣٥ وهو ابو بكر بن همام الدين وله نائب يدعى زين الدين شقيق له اجتمع به مؤلف تاريخ حوادث الدهر وابنائه وعنَّ له لحسن الحظ ان يسأله عن ضمان الدار مدفوعاً برغبته استطلاع كل ما يتعلق باخبار وطنه دمشق ولذلك انفرد في كتابه بذكر فوائد وحوادث لا تلقاها في روايات غيره من المؤلفين وهي مزية تدعو الى التفتيش عن تاريخه وطبعه . وهذا نص ما رواه بحرفه قال :

فسألته عن ضمان دار البطيخ فذكر ان ستهم في الضمان من اول نزول الشمس الى برج الحمل والى آخرها سنة شمسية بمبلغ مايتي الف درهم وسبعة وثمانين الف درهم. فقلت له اريد ان تكشف لي الضريبة وتفصل كل صنف بصنفه لانه مشارف الدار ونائب اخوه في الديوان

وكان ينتظر بعد هذا السؤال ان يرد الجواب بتفصيل الفواكه المحمولة الى الدار صنفاً صنفاً مع مكس كل منها بمفرده ولكنا لسوء التوفيق لا نجد في رواية الجزري الا سياق قسم منها فقط وخلوّ قسم آخر من تعيين الضريبة الموضوعة عليه كضرائب الخوخ والتفاح والكمثرى ولكن الجزري عوّضنا عن هذا الاغفال بذكر ما كان يستخرج من بعض الفواكه من الاشربة كالتفاح والسفرجل ومن الاعناب كالدبس وعدّ منه اربعة اصناف وكاللبن البعلبكي وحكى صفة عمله وكالزبيب. واضاف الى ذلك توسعاً مكس الثلج مع انه لم يكن من واردات الدار وقد حرصنا على نقل كل هذه العلاوات لفائدتها

ومن قابل بين اسماء الفواكه التي نقلها الجزري وما ورد منها في كتاب ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي التي استمدها من الجزء العشرين من تذكرة الصفدي وخصوصاً ما استوفاه منها البدري في « محاسن الشام » او ما جاء منها عرضاً في بعض الكتب الطبية ككتاب جامع الغرض ودفع المرض لابن

١) ذيل الروضتين لابي شامة خزانة باريس ٥٨٥٣ ص ١٣٠ والبداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني باريس ١٥١٦ ص ١٣١

القف الطبيب المسيحي الملكي من مخطوطات خزانة بريتيش موزيوم (رقم Or. 3690 الفصل ٤٣) يدرك كثرة ما اهمله الجزري من اصناف الفواكه الدمشقية الداخلة الى الدار في ايامه . قال بعد ما تقدم :

« اول شيء يدخل الى الدار من السنة الجديدة اللوز العقابي والورد والتفاح السكري والقراصيا والفول الاخضر : يؤخذ من كل سبع الدراهم درهم . هذه الاصناف عشرين الف درهم ومعها الحليون خمسة آلاف درهم والنارنج خمسة آلاف درهم . ومن بعدهم المشمش ذكر اصنافه وكذلك جميع الفواكه حتى تكون الفواكه مكملة

المشمش

الاول السندياني . يتبعه الحموي . ويلحقه البلدي الكبار يكون الرطل ستين حبة ويتبعه الخراساني الماني الحالي الذي ليس في الدنيا مثله . » ويتبعها الوزيري شبيه الخراساني الا ان قلبه مر . والكلابي اصناف كثيرة فيه صنار وكبار وماني وناشف . وفيه صنف يسمى ضراط البخاتي سمعت من جماعة من مشايخ دمشق ان بني الحسين بن علي رضي الله عنها لما كانوا بدمشق عبر عليهم اطباق المشمش وهي مغطاة فسألوهم ما هذه فقالوا ضراط البخاتي . قالوا اطعمونا منها فاخذوا بعر الجمال عملوه في طبق وغطوه وجابوه لهم مغطى .

فائدة ان الله تعالى جعل هذا المشمش الذي يسمى ضراط البخاتي والكلابي يباع كل عشرة ارطال بدرهم ويباع اكثره سلال كل سلة بربع درهم يكون زنتها رطل ونصف .

وفي آخر المشمش يجي مشمش صنار القد صلب الحب وقلبه حلو وهو ماني الى حد غاية . ذكروا انه هو كان اصل المشمش البلدي والخراساني . وبعض السنين اذا كان اللوزي مقبل ما يباع الكلابي . يسطحونه على الارض ييبس فيصير منه قناطير مقنطرة يباع القنطار بعشرين درهم (١

ومكس المشمش الذي يباع بدار البطيخ غير المراكز خمسة وثلاثين الف درهم وما يأكلوه اصحاب البساتين والفلاحين وما يهادوه لبعضهم بعضاً ويطعموه والمراكز يباع فيها جميع اصناف الفواكه طول النهار بخلاف دار البطيخ فانها من بكرة الى الثانية وتنفض . والمراكز فيها كتاب وامنا ومشدين ويحمل كل مركز ما اخذوه الى الديوان الكبير والضامن وهي مركز الصالحية . والمقيبة . وحكر السماق . وزاوية الشيخ ثابت . وميدان الحصا . وباب الصغير اول الشاغور والباب شرقي (ص ٤٦٤) وباب توما . وعند المدرسة الزنجبيلية . ومسجد القصب والعقيبة وغيره . وضريبة المراكز اربعين الف درهم . وزنار البلد ضريبته عشرين الف درهم

التوت

واما التوت فهو نظير المشمش وما عليه مكس ولا معارضة . وهو يستوي قبل المشمش

---

١) يستفاد من قوله : « يسطحون الكلابي على الارض فييبس » انهم لم يكونوا وقتئذ يتخذون منه القمردين . ولم يذكر القمردين في جملة واردات دار البطيخ او دار الطعم كما ذكر الزبيب والدبس والملبن . ولعل القمردين من محدثات القرن التاسع للهجرة في الغالب .

بشرة ايام ويبقى بعده بنحو عشرة ايام . والصيف هو عبارة عن التوت والمشمش وباقي الفواكه عيلة عليها . ويستوي التوت على الفراخي اول باول . قلت وهو ثلاثة اصناف الاول يقال « الماصي كُلي ولا تخاصي » . وهو ثلاثة الوان احمر واسود وابيض حلو طيب . ويقيم بنحو عشرة ايام التوت السلطاني حلو كبار ومن كباره وطواله يصفون منه خمسة تجي شبر ابن آدم واما سبعة وثمانية فكثير يحدونه للامراء والاكابر . واكثر الناس يرجحونه على المشمش لان فيه حرارة لطيفة ما ترخي المدة ويستحل سريعاً ويقيم التوت خمسين يوماً والثالث التوت الشامي الاسود المزّ يقوم مقام الشراب . .
ويتبعها :

الخوخ

الاسود . والخوخ الزجاجي الابيض . والشتوي وزن الخوخة الشتوية من اوقية الى عشرين درهم . والقبرصي دونه . والذي يطبخ باللحم عين البقر والدب ويسل منها المزاوير (جمع مزوَرة) للمرضى .
ويجي في زمانهم :

التفاح

النبطي . والخراساني . والبديدي . والجناني طيب الطعم سفار . والفضّي يطبخ باللحم لحضه . والمجهول . والاحمر . والشتوي الذي يأكلوه في الشتا ويسافروا به الى البلاد وهو الحديثي ابيض مشطب بالحمرة . والفتحي الذي يسل منه الشراب وخميرة التفاح ويوكل طول السنة . والزبداني وغيره
وفي الصيف ايضاً :

التين

منه الرومي لا يشبه حلاونه شيء . والبرزي . والمنيني وغيره . وضريبته عشرين الف درهم

البطيخ الاصفر

ضريبته ثمانية وعشرين الف درهم

البطيخ الاخضر

ضريبته عشرين الف درهم تستخرج من اصحابها من الضياع من كل ضيعة بكم بيمت مقاثيها . كل تسماية : درهم

الرمان

ضريبته في كل سنة عشرة آلاف درهم
ذكر اصنافه : المسامر (المسافري ؟) بلا عجو . والملس (المليسي) رخو العجو . وشوكي (شوبكي) وندسري . وكوني . ولفّان مثل الشراب يفرط ويخلط بالحلو ويوكل يغني عن الشراب . واما طبخه باللحم عجب من العجايب . والحامض للطبخ ومنه الحب رمان

السفرجل

ضريبته عشرة آلاف درهم . وهو صنفان : البرزي الحلو . والآخر القصبي الذي يطبخ باللحم . ومن خواص السفرجل اذا اكله المسهول على الريق عقل بطنه وملك اسهاله .
قلت والسفرجل يعمل منه شرابين احدهما يقطع صفار (٦٦٥) ويقشر باطنه وظاهره ويوضع في الدست ويوضع عليه الجلاب ويطبخ فاذا نضج واستوى يترك على حاله الى ثاني يوم يرخي مائيته فيرفع على نار لينة الى ان حيث ينعقد عليه الجلاب يحط في البراني ويستعمل . والشراب الثام منه يقطع ويدق بقشره ويعصر ماه ويوضع مع الجلاب ويطبخ بنار لينة حتى ينعقد بقطع الاسهال ويعمل منه معجون يقطع ويدق ويطبخ بالخلاف او العسل او الدبس بنار لينة مثل الحلاوة فاذا استوى يوضع عليه الانسون والطراف الطيب نافع لهضم الطعام واصلاح المعدة وغير ذلك . ولولا خوف الاطالة لذكرت في اكثر الفواكه خواص كثيرة ذكروها الحكماء .

الانجاص هو الكمثرى

اوله البيلاني . ويتبعه السكري وهما لطاف الحبة . والمعنّق كبار ولونه احمر . والمثاني الصيني هولاء سعرهم غالي : رطلين الى رطل ونصف بدرهم والعلاني قشره اخضر وباطنه ابيض وتلحقه حموضة واذا بات حلا وهو يخشّن المعدة ويقطع الاسهال وسعره رخيص من ثلاثة ارطال الى اربعة ارطال بدرهم . واما خشبه فله قيمة جيدة يعملوا منه القطع الذي يحلجوا عليها القطن الجوب ويستخرجوا منه حبه وما في الاخشاب ما يقوم مقامه . والسقلاني قشره اسود وهو حلو كبار . والسمرقندي كبار اصفر واكثر الناس يعملوه في الخل ويضيفه الى المخللات . والملكي . والصيني اصفر كبار . هذا جميعه صيني . واما الشتوي الذي يعلق ويسافر به البلاد فهو يقال له الرحبي والمثاني

وذكر ارض الدار ومكسها سبعة آلاف درهم وهو الخيار والقثا والقرع واللوبيا والثوم والبصل والخشخاش والحمص الاخضر وغير ذلك والقنبيط مكسه خمسة عشر الف درهم والقلقاس مكسه (بياض) وهو صنفان البلدي والطرابلسي مثل المصري في طعمه وجودته

الدراقن

أسماه اللوزي الكبار . كل واحدة اوقية . وحبه حلو . والزهري احمر واصفر ورائحته طيبة تشد الفواد . والزّيق ما يوكل الا مقطع بالسكين ومقشر او ينهش بالاسنان القوية . والمجهول كثير واصنافه كثيرة . منه المظفري . ولحم الجمل وغير ذلك . والجميع طيب ينفع الشاب ويضر بالشايخ

العنب

ذكر ان مكسه في السنة اربعين الف درهم . يوخذ منه كل حمل درهم ونصف . كل فردة نصف وربع درهم . وزن كل فردة من خمسة واربعين رطلا الى خمسة وثلاثين رطلا .

ويبع كل فردة من عشرين درهم الى خمسين الدراهم . وبقية الحمل وجمه وحمله الى دار العنب ثلاث الدراهم ومكسه درهم ونصف . وقباني ومنادي : نصف يبقى الحمل خمس الدراهم . يحصل ثمن الحمل بعد المصروف من عشرين درهماً الى الاربعين

اصناف العنب واسماؤه كثيرة . فاول ما يقدم الى دمشق العنب الداراني لونه احمر يسبق جميع الاعناب بعشرة ايام . ثم يتبعه الاصابعي وبيض الحمام كبار ابيض . الزردي . ومخ العصفور . وقسيسي . وخناصري . وجوزاني . وعبيدي . والعبيدي هو الذي يعلقوه في المخازن في الشتاء ويبيعوه زمان زهر اللوز والثمار . قلت والشيخاني . والبيتوني والعاصمي ياخذوا مكسه كل سبع دراهم درهم(١

ويباع العنب مدة ستة شهور كل يوم من ثلثماية حمل الى اربعماية وخمسين حمل . وبعض الايام يصل الى خمسماية حمل . هذا من غوطة دمشق . واما الجبلي فمكسه لدار الطعم مع الثلج في السنة سبعين الف درهم يضاف لدار الطعم خمسة وثلاثين الف درهم : والثلج بخمسة وثلاثين الف درهم

قلت وهذه ضمان الفواكه التي يستخرج مكسها مايتين الف درهم . ويتبعها كتاب وجامكيات ومشدين ورحالة وما يسرقوه ويخفوه اكثر من عشرين الف درهم . فيكون ثمن اليبوع غير ما يأكلوه اصحاب الثمار ويهادوه ويخفوه ويدخلوا به الى بيوتهم اكثر من ثلاث الف الف درهم . . .

تتمة اخبار الاعناب

(بخط غير خط الكتاب وهي بمعنى ما سبق وفيها زيادات قليلة)

(كالكلام على الدبس والزبيب والملبن والثلج)

اول ما يدخل الى دمشق العنب الداراني وهو احمر اللون مدوَّر حلو شبه السكر يبقى دون شهر وحده . ثم يتبعه البزري ابيض اصابعي ومدور . ويتبعها بقية الاعناب خمسة ستة الوان . وامير العنب العاصمي . ويدخل الى دار العنب في كل يوم من ثلثماية حمل الى خمسماية حمل نحو شهرين . الحمل فردتين . وزن كل فردة خمسين رطل الى خمسة وثلاثين رطل . تباع كل فردة من عشرين درهم الى ثمانية وسبعة . يؤخذ من كل حمل درهم ونصف مكسه اربعين الف درهم . والعنب الذي يجي من الجبل هو لدار الطعم . مكسه في السنة

---

١) من الغريب جدا انه لم يذكر العنب الزيني . وهو غير الاصابعي . وغير البزري وغير العاصمي .. وقد ذكره في عصره صلاح الدين الصفدي كما يؤخذ من تذكرته التي اشرنا اليها من نقل ابن حجة الحموي . وذكر « الزيني » بعده البدري في كتابه محاسن الشام (٢٢٣) وقد فات الجزري كثير من اصناف الفواكه الداخلة الى الدار فضرب عنها صفحا واهمل تعداد ضرائبها بوجه التفصيل وبالترتيب واضاع بعض فوائد روايته التي انفرد بجزئيتها واهميتها . ولا نرى لها لسوء الخط بديلا ولا تكملة في ما وقفنا عليه من الاثار الباقية

خمسة وثلاثين الف درهم . وهو ثلاثة الوان احمر كبار صلب . وابيض مدور يسمى قصيف حلو كبار . وبيض الحمام كمدور البيض ينهم الى ان تزهر الاشجار . يباع من رطلين الى رطل بدرهم وهو مليح جدا حلو طيب الى الغاية

الدبس

هو لدار الطعم . مكسه في السنة اربعين الف درهم . يؤخذ من كل قنطار سبعة ارطال . وحق الدار سبعة الدراهم . وهو اربعة اصناف . الاول الشديد الذي يعمل منه القطايف بقلب الجوز . والثاني اصفر يشبه العسل لبن . والثالث المرمل يشبه السكر المفتوت منه . والرابع السايل وهو صنفين . احدهما يزغلوه مع القطر النبات في عمل الكنافة والقطايف . والاخر يعمل منه جميع الحلاوات . يؤخذ عشرة ارطال دبس توضع في القدر وتعصر بياض البيض والنار فتبقى ستة ارطال ويضاف اليها قلب جوز ستة ارطال او دونها بقليل او (٤٦٧) يقوم بوزنه ويعقد حلاوة جوزية . او منقوشة . او سمسية . وتحط في العلب ويسافروا بها الى اكثر البلاد ومصر وبغداد وغيرها

الذي يباع بدار الطعم ثمنه اكثر من مايتي الف درهم خارجاً عن كروم اهل البلد الذي في الجبل والامراء والاجناد

الزبيب

نحو خمسة ستة الوان : الدربلي . والجوزاني . والاسود . والصغار بلا حب . وغير ذلك . ومكسه عشرين الف درهم . ويؤخذ منه مثل الدبس سبعة ارطال وسبعة دراهم .

الملبن البعلبكي

مكسه عشرة الاف درهم . وصفة عمله : القنطار من ماء العنب اذا وضع في القدر واوقد عليه يبقى ستين رطلاً . يضاف اليه ثمانية ارطال نشا ورطلين قلب جوز وفستق ولوز ويسافر به الى جميع البلاد

الثلج

يؤخذ منه للسلطان الربع . وينقص من اول النهار الى آخره الربع . مكسه في السنة خمسة وثلاثين الف درهم . وضامن وديوان وغيره خمسة الاف درهم تكملة اربعين الف درهم . يباع في الشتا . يوضع على الفقاع وما يشرب بالماء في الصيف مايه الف درهم وستين الف درهم (٤٨٦)

وكانت كل هذه الرسوم ثقيلة الوطأة على الرعية لكثرة من كان يقتات بها من العامة والفقراء، ولذلك لما دخل السلطان نور الدين دمشق في العاشر من صفر ٥٤٩/١١٥٤ « رأى ان يتقرب من قلوب اهلها باسقاط مكس الدار في

جملة حقوق اخرى سلطانية[١] قال ابن القلانسي : ثم احضر بعد غد ذلك اليوم اماثل الرعية من الفقها. والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم... ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل والانهار وانشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة .»[٢] وزاد الصفدي « ابطال مكوس الكيالة وسوق الغنم وغير ذلك »[٣]

ولكن ابطال هذه الحقوق لم يتجاوز اربع سنوات اواخر رجب سنة ١١٥٨/٥٥٣ حتى قام قوم من سفها. العوام وحسنوا للسلطان نور الدين اعادة ما كان سامح به اهل دمشق من مكوس دار البطيخ وعرصة البقل والانهار وضمنوا له القيام بعشرة آلاف دينار عنها والحوا بذلك حتى أجيبوا . فلما شرعوا بفرضها على ارباب الاملاك والاعيان والرعايا ضج الناس واستغاثوا بالسلطان فامر باسقاطها ثانية وتعفية اثرها . واضاف الى ذلك فيما رواه ابن القلونسي ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن تبرعاً من نفسه[٤]

على ان امد هذه المسامحة لم يكن طويلًا لشدة طمع الملوك والنواب في اموال الرعية وحرصهم على تتابع الجبايات والضرائب سدًا لنفقاتهم الطائلة وربما اجتمع لهم منها على الاسواق والاملاك ما كانت ترزح تحت ثقله . فكانت الولاة لا ترى بدًا من مدة الى اخرى من التخلي عن البواقي منها وابطال هذه المظالم باسرها . ولعل رسوم دار البطيخ كانت في جملة ما اسقطه الملك العادل سيف الدين بن ايوب منها في ما نقله ابو المظفر سبط ابن الجوزي[٥].

---

١) في خزانة اسكوريال (Escorial) في جوار مدريد بين مخطوطاتها العربية مجموع غفل من اسم جامعه (رقم ٥٦٧) وفيه في الصفحات ٤٦ - ٤٨ نسخة توقيع كتب عن السلطان نور الدين بابطال المكوس في البلاد التي تولاها عُددت بلدًا بلدًا وفي مقدمتها دمشق كانت مكوسها السابقة في ازمنة مختلفة ،مثتي الف وعشرين الفًا وخمس مئة وثلثة وثمانين دينارًا . وكانت بتاريخ التوقيع خمسين الفًا وسبع مئة وثلثين دينارًا

٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ – ٣٢٩

٣) تحفة ذوي الالباب . خزانة باريس ٥٨٢٧ ص ١٤٠

٤) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٢ – ٣٥٣

٥) الوافي بالوفيات للصفدي . باريس ٥٨٦٠ ج ١ : ٤١

وفي سنة ١١٩٦/٥٩٢ « اسقط الملك العزيز المكوسي من سوق الرقيق وما هو مقرر من المكوس في سوق الدواب ودار البطيخ والملاهي »[١]

وجاء ابطال رسوم الدار ايضاً سنة ١٤٠٣/٨٠٦ على اختلاف في تاريخ الشهر ذكر المقريزي انه في ١٩ جمادى الاولى نودي فيه في دمشق بابطال مكس الفاكهة والخضراوات[٢] . ونقل ابن قاضي شهبة انه في ربيع الاول. قال : « نودي فيه بابطال مكس الفاكهة والخضراوات بامر النائب . وكان يؤخذ على المقاتي وغيرها . وكتب في ذلك الى مصر ليجيء مرسوم السلطان بذلك . وذلك بعدما احتال واشهد على المقطعين من الاجناد انهم راضون بذلك . فجاء المرسوم على حسب مكاتبة النائب في ذلك وبطل واستمر »[٣]

وفي ١١ صفر سنة ١١٥٢/٩٢٧ « نادى الغزالي جان بردي نائب الشام » بابطال المكوس وما يؤخذ على البضائع بالخان ودار البطيخ »[٤]

وكان بدمشق داران للبطيخ اشار ابن شاكر الكتبي الى موقع الاولى منهما في كلامه على الكنيسة التي كانت بحضرة سوق الفاكهة وقال انها « كانت في دار البطيخ العتيقة »[٥] وعين ابن عساكر مكانها عند قناة الثلاج[٦] وهي السبيل المعروف بجارة التلاج قريباً . من كنيسة مريم . وفي جوارها كانت قبلًا سوق الفاكهة . وذكر ابن شداد في جملة المساجد القديمة « مسجداً عند رأس درب التيمي في سوق دار البطيخ[٧] . وموقع هذا الدرب كان بمقربة من درب الحبالين ودرب الفراش اي غير بعيد من الحارة المشهورة ببستان القط عن يمين الشارع الذي فيه الكنيسة المريمة . ولما وسع الطريق في تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ ظهر وراء سبيل الثلاج قنطرة رومانية قديمة ترى اليوم من بقايا

---

١) نهاية الارب للنويري : جامعة ليدن Arab. 2ˡ Gol. f° 214

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك . باريس ١٧٢٧ ج ٢ : ٤١

٣) كتاب الذيل . باريس ١٥٩٩ ج ٢ : ٣١٣-٣١٤

٤) حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين لمحمد بن عيسى بن كنان خزانة برلين ٣٠ Wetzst 11 n° 117 f° 73

٥) عيون التواريخ ١٠٨٧ باريس ٩٣

٦) مختصر بدران ١ : ٣٤٨

٧) الثالث من كتاب الاعلاق الخطيرة . بريتش موزيوم Add. 23335. f° 43

دار البطيخ العتيقة . ولم يذكر احد المؤرخين الزمن الذي بطلت فيه هذه الدار

واما موقع الدار الثانية فكان تحت القلعة اشار اليها ياقوت في ما رواه من الاخبار القديمة عن شيوخ دمشق وقال ان دار شداد بن عاد « كانت في سوق التبن . . . وانه كان يزرع له الريحان والورد وغير ذلك فوق الاعمدة بين القنطرتين قنطرة دار بطيخ وقنطرة سوق التبن . وكانت يومئذ سقيفة فوق العمد »[1] . ولا يزال اسم سوق التبن معروفاً اليوم يدخل منه الى سوق خان الباشا اي الى سوق دار البطيخ . وقديماً زالت العمد والقنطرتان ولم يبق الا ساحة الدار وفيها الآن سوق الفاكهة حيث كانت قبلاً

ومن الاشارات ايضاً الى مكان دار البطيخ الثانية قول ابي شامة في كلامه على وفاة معين الدين أُنُر سنة ٥٤٤/١١٤٩ ان قبره « في قبته بمقابر العُوَينة شمالي دار البطيخ الآن »[2] . وقول ابن قاضي شهبة ان عمارة بهادر كانت سنة ٧٩٣/١٣٩١ « في سوق الغنم خلف دار البطيخ »[3]

وآخر ما ورد ذكر دار البطيخ في قول البدري من المتأخرين : ان « من محاسن الشام تحت قلعتها . . . وهي ساحة سماوية . . . تحفها الدور وتعلوها القصور . . . فيها دار البطيخ الذي (كذا) يباع فيه جميع فواكه البلد . وبه العين المشهورة المُجمع[4] على برودة مائها وعذوبته وخفته »[5]

وممن ذكر دار البطيخ في القرن العاشر يوسف بن عبد الهادي في جزء له سمّاه كتاب الاعانات على معرفة الخانات قال : « دار البطيخ بها ثلاثة خانات الاول الشامي . والثاني عند باب المسجد قبلة . والثالث فوقه وبابه شامي . » وفي مكان هذه الخانات خان الباشا المشهور اليوم

ولم يتفق لنا العثور في كل مطالعاتنا على الزمن الذي بنيت فيه بالضبط دار البطيخ الثانية

---

١) معجم البلدان ٢ : ٥٨٩ وتصحف فيه اسم سوق التبن بسوق التبن

٢) كتاب الروضتين ١ : ٦٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٢٢٦

٣) كتاب الذيل ١٥٩٩ باريس ٢ : ٦٥ — ٦٦

٤) في المتن المطبوع « وبه العين المشهورة بالمجمع » وهذه الطبعة وافرة الاغلاط

٥) نزهة الانام في محاسن الشام ٦٣

نصٌّ قديم بالعربية

لمجمعي قنوبين سنة ١٥٩٦

للخوراسقف ميخائيل الرجي (ملحق)

في القسم السرياني من المكتبة الوطنية بباريس ، كراس كرشوني يحتوي على نص مجمعي قنوبين سنة ١٥٩٦ . وقد تكرم صديقنا في باريس حضرة الخورسقف يوسف الفغالي فارسل الينا ، بناء على طلبنا ، نسخة عن صورة منه محفوظة لديه . فراينا افادة في ارداف مقالنا السابق بهذه العجالة[١]

ذكر هذا الكراس العلامة زوتنبرج في فهرست القسم السرياني من مخطوطات المكتبة الوطنية ، تحت العدد ٢٢٩ ، واورد عنوانه كاملًا ، وافاد انه يتالف من ١٢ ورقة[٢] . ويوم طالعناه في صيف سنة ١٩٤٩ ، قرأنا في اعلى الصفحة الاولى منه انه من جملة المخطوطات المتروكة عن العلامة رينودوت (Fonds Renaudot) . وذكرنا في مفكراتنا عنه انه « كله بخط سرياني قديم ولغة عربية قديمة ، وقد يكون من عهد البطاركة آل الرزي » . فنوضح الآن ، بعد ان قابلناه بنسختي بكركي ، ان ما سبقنا فقلناه في هاتين النسختين ، من حيث الترجمة واللغة والعهد ، ينطبق عليه تامًا[٣] .

ولسنا نتوخى هنا ايراد كل ما كان مختلفًا في كراس باريس عن مثله في نسختي بكركي ، بل نكتفي بما يأتي :

١ً — نورد بعض ما جاء فيه اوضح واتمّ واصحّ :

١) المشرق : السنة ٤٦ : عدد كانون الثاني — شباط ١٩٥٢ ، ص ٤١ — ٦٨ .

٢) H. Zotenberg, *Catalogues des Manuscrits Syriaques et Sabéens de la Bibliothèque Nationale* Imprim. Nat. 1874, p. 176, col. 2.

٣) مقالنا السابق ص ٥٠ و٥١ .

– المددان ١ و٢ جعلا واحداً (ص ٥٦ س ١ – ٣ من مقالنا السابق) .
– في التقديسات موضوع صلبوت الثالوث كله (ص ٥٦ س ٥) .
– العدد ٦ جعل اثنين (ص ٥٦ س ٨) .
– صورة جميع الاسرار عندهم غير كاملة (ص ٥٦ س ٢٠) .
– كل واحد شرح رايه وامانته (ص ٥٧ س ١) .
– التقديسات بنوعين . . . فلا تقال على الثالوث ، ما يزاد عليهم شي . فلا تقال على الاقنوم . . (ص ٥٧ س ٨) .
– الاعداد فيه ١٣ فقط ، اذ جعل العددان ١٢ و١٣ واحداً ، كما هو الواجب (ص ٥٨ س ٤) .
– اذ اماتتهم (ص ٥٨ س ١٣) .
– ام لاجل قلة معرفة الكهنة (ص ٥٨ س ١٥) .
– العراب . . . واحد ام واحدة ، ام بالاكثار واحد وواحده (ص ٥٩ س ٣) .
– في المجمع الترتاني بحكمة اتحدد . فذلك هو بالعاد بين العراب ، اما [ام] العراب والعرابة ، والمعمّد وابوه وامه ، وايضاً بين المعمّد والمعمود وبين اب وام المعمود تصير القرابة (ص ٥٩ س ٥ وما بعد) .
– لان تناول جسد ودم المسيح كل واحد وحده واجب لكمال التقدمة ، الكاهن ما هو واجب انه يسوقها اذ يقرب الكهنة والشعب . بل هو اولاً يأخذ الجسد والدم وبعد ذلك يقرجهم من القسمات التي هي بالكاس ام منطسه بالدم ، ام بع قليل من الدم (ص ٦٠ س ٩ وما بعد) .
– ايام الاعياد . . الذين تحت وصية واجب حفظهم (ص ٦٠ س ١٩) .
– مضرة عظيمة تكون لانفس الساذجين اذا كانوا في ايديهم (ص ٦١ س ١) .
– اذ يأدبون [يؤدبون] المخالفين (ص ٦١ س ٧) .
– بل بكمال وكلية يستطيعون يخدمون (ص ٦٢ س ١٤) .
– دون عند البطرك (ص ٦٢ س ٢٤) .
– ولهذا يتحددون اولئك الذين هم قدْ [قدر ، كفؤ] هذا الاسر المقدس والذي للخلاص ، ويتحددون المواضع (ص ٦٣ س ١) .
– ومن الله العظيم والصالح (ص ٦٣ س ٢٣) .
– تحت وصية لجميع المؤمنين (ص ٦٤ س ١) .
– من لا يعطي البطرك (ص ٦٦ س ١١) .

٢ً – ذكرنا ان القوانين الـ ١٢–١٥ من المجمع الاول بنصّها اللاتيني غير واردة في نسختي بكركي وقدرنا انها مهملة عمداً[1] . ولما كانت موردة بكاملها

---

١) مقالنا السابق ص ٥١ .

في كراس باريس ، فبيان ان ناقلَي نسختي بكركي تركاها سهواً . ولا بدَّ من ان ارقام الاعداد التالية في النسخة الناقصة الاولى بقيت كما كانت في الاصل أي ١٦ — ٢٠ ، ولم تجعل ١٢ — ١٦ ، كما في نسختي بكركي ، الا في النسخ المأخوذة بعدئذٍ عن الناقصة .

وهاك نص هذه القوانين :

١٣ : الانا [الانية] الذي فيهم تحتفظ الذخيرة المقدسة في الكنائس ، واجب انهم يكونوا ام من فضة ام من ذهب ام من مادة اخرى جيده . لكن ان كان ما يمكن ان يكونوا من هولاي ، بالاقل لا يصيروا من عود بل من نحاس ام قصدير وما اشبه ذلك .

١٣ : الزاجه ما تصير انكان ما العريس ما يكون ابن اربعة عشر سنة ، والعروس بنت اثني عشر سنة . لكن قبل هذا الزمان ، يقدر يصير وعد وخطبة .

١٤ : قدام كاهن الرعية المختص والشهود يتقدون كلهم الجازه . ويكون مع الكاهن المذكور كتاباً يكتب فيه اسامي المتزوجين والشهود والموضع واليوم . — وايضاً بثلاثة ايام اعياد متصلة يشهر الزواج المزمع في الكنيسة بالقداس .

١٥ : غير لايق جداً الحق هو ما سمعنا انه صار من بعض ناس الذين يزوجوا بناتهم للهراطقة وللمنفصلين عن الكنيسة . يتحظروا الاساقفة حتى ابداً هذا لا يعود يصير .

٣ — ترد التواقيع في كراس باريس بعد المجمع الاول ، مقصورةً على البطريركين والاساقفة والشدياقين ، دون الكهنة ، بنصها في نسختي بكركي باستثناء ما نورده هنا منها ، وبالترتيب التالي :

« انا بطروس سركيس بطرك الموارنه » . المطران يوسف الحبيس . المطران يوسف رئيس دير قزحيا « في جبل لبنان ، مثبت من قديم الزمان بهولاى رسوم كنيسة رومية وفي الزمان الماضي والقابل والعتيد برضاي والان الى الابد » . الشدياق خاطر . الشدياق فرج . المطران يونان . « انا الحقير المطران ابراهيم اثبت وارضا بهولاى » . « انا الحقير المطران موسى اثبت هولاى وارضا بهم » . البطريرك يوسف ، المطران موسى العنيسي .

ان بين هذه التواقيع اثنين جديدين ، ليسا في نسختي بكركي : توقيع ~~المطران موسى المتوكل على بشري ، الوارد اسمه في مقدمة المجمع الاول بنصه~~ اللاتيني ؛ وتوقيع المطران ابرهيم الوارد ذكره ، بمعرض المجمعين ، هنا فقط .

فمن هو هذا المطران ابرهيم ؟ فتشنا فلم نقف في تواريخ الطائفة على اثر لمطران بهذا الاسم في هذه الحقبة . ويُعرف مطران بهذا الاسم في الحقبة التي تليها . ذكر الدويهي رسامته ووفاته ، هكذا : في سنة ١٦٥٥ « كانت قسمة [رسامة] الاسقف ابرهيم السمراني » ، وفي سنة ١٥٧٧ « في الثامن عشر من شهرَ ايار ، انتقل الى رحمة ربه الاسقف ابرهيم بدير قزحيا »[1]

فترجح ان كراس باريس قد كُتب في دير قزحيا ، بدليل ما زيد فيه على توقيع رئيسه المطران يوسف السمراني من عبارات تشيد بغيرته المفرطة في قبول رسوم كنيسة رومية ، كما هو معروف عنه وعن ذويه واصحابه في ذلك العهد ؛ وانه قد كُتب في عهد المطران ابرهيم السمراني المذكور ، فزاد الناسخ، وقد يكون المطران ابرهيم نفسه ،توقيعه اسوةً بالمطرانين يوسف ويونان اللذين كانا من عائلته ومن سلفائه في دير قزحيا . والله اعلم .

٤ – قبل ان يغادر الاب دنديني لبنان ، عقب عقدَ المجمعين ، ترك الى البطريرك يوسف الرزي « مذكرة خطية » بخمسة عشر بنداً ، تدور على امورٍ لم يُؤتَ على ذكرها في المجمعين ، بل كان قد خاطب البطريرك بشأنها مشافهةً فقط ، كما صرَّح بذلك في رواية رحلته ، حيث يورد البنود الـ ١٥[2]

فالكراس الباريسي الذي نحن بصدده يورد قبيل اخره ، بعد قوانين المجمع الثاني وقبل لوائح الاعياد والمحفوظات ، صورة كتاب بعشرة بنود ، بدون اسم في عنوانه ولا عنوان في اخره ، كما سترى ، لكنه بدون ريب ترجمة كتاب من الاب دنديني الى البطريرك يوسف ، وما هذا الكتاب سوى « المذكرة الخطية » المحكي عنها ، بتصرف يسير ، مع اهمال بنديها السادس والسابع . واليك نص الكتاب :

ايها السيد الشريف المكرم

تكون سيادتك راضية بتذكار الاشيا. التي انا واياك اتفقنا عليهم بيني

---

١) تاريخ الازمنة ، طبعة الاب تونل ، المشرق ٤٤ (١٩٥٠) ، ص ٣٥١ و٣٧٣ .

٢) دنديني ، ص ١٣٠ – ١٣٢ .

وبينك ، وبحضرة بعض من الاساقفة ، وبحضرة السيد الشدياق خاطر ، لاجل خدمة الله وعون الطائفة التي هي متسلمة لتدبيرك .

اولًا : كثرة الحرص باحتفاظ جميع القوانين المتطنة بالمجمعين . ولاجل ذلك تكون نساخة [نسخ] كثيرة عند الاساقفة وعند الكهنة ، خصوصياً في المواضع المختصين : (Terre principali) .

ثانياً : وقتاً تبعثون اولاد المدرسة [المارونية في رومية] ، لا يكونون اقلّ من اربعة عشر سنة بالعمر ، وسنةً يكونون متدربين بالغراماطيقي والقراية والكتيبة . وبعد ذلك يبعثون بالخفي بقلة خسارة وخطر من المسلمين (دنديني : Turchi) ، ويزيد : بدون تعريج السفينة على قبرس ، او اقلّه بدون النزول اليها) .

ثالثاً : انكم تشغلوا التلاميذ الذين يرجعون من رومية بانتهاء المدرسة (Conforme al fino del Collegio) بشوغلٍ [بشغلٍ] واجب (ما يتبع مفصلًا هنا هو مجمل في دنديني بعبارة : كل الاشغال المحكى عنها فيما سبق) كمثل الاسقفية للعلم ، وبالاكثر بتدبير الكنائس والكرز والاعتراف وعلم تعليم المسيحي للاولاد ، بقراية امور النية ، بكتيبة بعض من الكتب الضروريين للطائفة ، يوقوفهم عند البطرك ام الاساقفة ، ليجاوبون بالصعوبات التي تعرض ويرافقهم بالزوران [زيارة الرعية] ، ام الى هذا الزوران موضعهم يرتسلون .

رابعاً : يصيرون اساقفة للمواضع الذين معتادين يكونون فيها (دنديني : للمواضع الخالية وبالاخص لقبرس) . ولاجل ذلك واجب الكتيبة الى رومية في شأن رسامة غسبار ام يوحنا لينبعث الى قبرص (دنديني : في شان رسامة وتكريس احد تلاميذ المدرسة وردّه الى وطنه) . الان ينبعث احدًا في اذار المزمع حتى يزور ويسلّي الموارنة الذين هم في تلك الجزيرة وياخذ معه كتاب [كتب] قداس الذين هم في طرابلوس وزيت مقدس وطابليط وصمدات .

خامساً : يصير نيباع [؟ : ينسام] اسقف في العاقورة . والان ينبعث احدًا يزورها .

(في دنديني فقط : سادساً : مشورة بارسال وفد الى رومية لتقدم الطاعة باسم البطريرك

الى الحبر الاعظم وطلب التثبيت والدرع ؛ - سابعاً : طلب تعيين شخص كفوء لوضع الكتب اللازمة لخدمة الجلال الالهي ولفائدة الطائفة ، وعرض اسم المطران جرجس عميره كشخص كفوء كل الكفاءة لهذه المهمة)

سادساً (دنديني : ٨) : يتريتاق [يتيض] للرهبان زمان الصلاة العقلية ، فكل ما يمضوا على بكره لاعمال الجسد [الاشغال اليدوية] وعلى قبل النوم.

(دنديني : ٩) : بغير اختصاص واذ ما يكونون وتعطيهم عازاتهم (؟؟ ؛ دنديني : يجرد الرهبان من حق التملك ويقدم لكل منهم الطعام واللباس وسائر حاجاته) .

(دنديني : ١٠) ويحفظون الطاعة الى رئيسهم بالدير .

(دنديني : ١١) وياكلون كلهم جملة في قراءة الكتب المعتادة للرهبان . وكل ما [منهم] ينام بقلايته ، ولا يختلطون [في المنام] مع العامية .

سابعاً (دنديني : ١٢) : بالدخول للرهبنة تصير التجربة بمدة سنة بالاقل ، تحت تدبير وعلم انسان روحاني ام معلم . وبعد ذلك ظاهراً يعمل على روحه نذر المسكنة والطهارة والطاعة .

ثامناً (دنديني : ١٥) : ان يكون دايم امامك توقير وعون الانفس التي تحت تدبيرك ، اذ انت فاكر دايم بشغلك الذي هو المجهد [الاجتهاد] بتدبير الرعية الذي فيه روح القدس وظكم [وظعكم=وضعكم] لتدبيرها بيعة الله التي ربحها بدمه.

تاسعاً (دنديني : ١٣) : تتحظر في تعويق الكنائس . ولا في هولاى بالهينه تحلل خصوصاً مع الزوك [الزوط = الحول] واوحاشات الجسد الكبيرة (دنديني : في الرسامات يجب الانتباه الى العجز الكنسي فلا يفسح منه بسهولة ، وخصوصاً للحول ولسائر المصابين بعاهة جسمية مماثلة هامة) .

عاشراً (دنديني : ١٤) : تجتهد وتتكلم مع الاسياد الشدايقة حتى يخلصون من الجوالي والخراجات (dal tributo della testa) هولاي التلاميذ الذين هم ان [إماً] متوكلين في خلاص الانفس و [اماً] مزمعين ان يتوكلوا لان هاكذه الشدايقة قايلين (hanno promesso) .

بستة من تشرين الاخرى بسنة انص و [١٥٩٦]

انجيل خطي قديم

تعريفٌ لهُ

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

عثرنا في سنة ١٩٢١ ، على هذا الانجيل الخطّي القديم ، عند المرحوم الشيخ يوسف فرنسيس ابي جبر الخازن (شقيق الكاتب الشهير الشيخ شاهين الخازن المتوفى في الاستانة) في بلدة غوسطا ، كسروان ، يحتوي على اناجيل الرسل الاربعة ، متى ومرقس ولوقا ويوحنا . وهو كتابٌ ضخم يقع في ٩٥١ صفحة كبيرة ، في حقلين سرياني وكرشوني الملفوظة حروفه بالعربية ، مجلّد بجلدٍ متين ومنسوخ على ورق عبّاديّ سميك بخط القس يوسف ابن القس سليمان مبارك من مزرعة بطحا الملاصقة غوسطا ، نسخهُ سنة ١٦٧٧ م في عهد بطريركية الطيّب العين والأثر اسطفان الدويهي على الطائفة المارونية ، على ما سيأتي ذكرهُ . وفي بداءة كل انجيل للمبشّرين الاربعة نقشةٌ جميلةٌ بالحبر الاسود والاحمر ، وتُعيّن قراءة كل انجيل من هذه الاناجيل الاربعة للآحاد والاعياد وآحاد الصوم وايام اسبوع الآلام . ولم يذكر الناسخ النسخة التي نَسَخَ عنها .

جاء في بداءة الانجيل الاول في هذا الكتاب :

« باسم الثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس الاله الواحد . نبتدئ بكتابة الانجيل المقدس لبشارة متى الرسول صلاتهُ معنا امين» .

واننا ننقل هنا الانجيل الذي يُتلى في يوم عيد الغطاس كمثلٍ يستدلّ به القارئ على سياق هـذا الكتاب وهو منقول عن نصّه السرياني الذي مقابلهُ حرفيًا :

« وفي تلك الايام جاء يوحنا المعمداني يكرز في بريّة جوذا ويقول توبوا فقد اقتربت منكم ملكوت السماء لان هذا الذي قيل في اشعيا النبي اذ يقول صوت صارخ في البريّة اعدّوا

طريق الرب وسهلوا سبلهُ . وكان لباس يوحنا من وبر الجمل ومنطقة جلد على حقويه وكان طعامهُ حشيش يسمّى نجريند وعسل برّي، وكان يخرج اليهِ من اورشليم وكل اليهودية وجميع كور الاردن معترفين بخطاياهم وكانوا يتعمدون منهُ في نهر الاردن . فلما رأى كثيرًا من الفريسيّين والزنادقة يأتون الى معموديتهِ قال لهم : يا اولاد الافاعي مَن دلّكم على الهرب من الرجز الآتي اعملوا الآن ثمرة تستحق التوبة ولا تظنوا وتقولوا في نفوسكم ان ابانا ابراهيم ، الحق اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة بنين لابراهيم ، هوذا الفأس موضوعة على اصول الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمرًا صالحًا تُقطع وتلقى في النار . انا اعمدكم في الماء للتوبة والذي يأتي بعدي هو اقوى مني ولستُ استحق ان احلَّ سيور حذائهِ فهو يعمدكم بروح القدس والنار وبيده الرفش ينقّي بها بيادرهُ ويجمع القمح في الاهرآء والتبن فيحرقه في نار لا تُطفى . حينئذٍ اتى يسوع من الجليل الى الاردن الى يوحنا ليعتمد منهُ فامتنع يوحنا منه وقال : انا المحتاج ان اعتمد منك وانت تأتي اليَّ . اجاب يسوع وقال لهُ : دع الآن هكذا يجب لنا ان نكمّل كلَّ البرّ . حينئذٍ تركهُ ، فلما اعتمد يسوع للوقت وصعد من الماء انفتحت لهُ السماوات ونظر روح الله نازلةً كمثل حمامة جائيًا اليهِ واذا صوت من السماوات قائلًا : هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت » .

وجاء في آخر انجيل متى بالحبر الاحمر ما هو مسطَّر بحرف سرياني يُلفظ بالعربي ، وهو :

« كمل كتابة انجيل متى الانجيلي المتكلم بلسان عبراني في فلسطين » .

ثمَّ بخط عربي :

« ولله الحمد وعلينا رحمتهُ دائمًا الى الابد امين » .

ثمَّ تلي هذه الزجلية في الكهنوت ، بخط كرشوني وهي :

هذه بيات (ابيات) على الكهنوت

اول افتهم يا كاهن ولا تكون متهاون
في خدمتك لربّك انك دُعيت لهُ كاهن

❖ ❖

الكاهن يقال كاروبي في خدمته منصوبي
جسد المسيح مطلوبي من كل من هو كاهن

❖ ❖

وانت المسيح اختارك وعملك سراج لجارك
استقيم بافكارك واعرف طريق الكاهن

❖ ❖

هو صنعته القدّاس الماسة لهُ حرّاس

وجسد المسيح يتكرَّس   ويقسّمهُ الكاهن

ارىع جواهر ينقسم   فيها دلايل تُعلم
لا نقص يقال ولا ظلم   لاهوت وناسوت باين

المسيح رأس الكهنه   قسم جسده بيمنه
اعطاه لنا الكهنه   وعلّمك يا كاهن

وقال للكلاب لا تعطيه   ولا للخنازير ترميه
وانت متصرّف فيه   وأمين عليه يا كاهن

ولا تقول هو محصور   ولا نقصًا او مكسور
ذا سرّ هو نور   من نور صحيح اقتبل يا كاهن

اول خاصي لذاتك   تذكارًا لايمانك
ومن طلب بصلاتك   تندر تعطيه يا كاهن

تمام من ما يخصّك   المحبة تريد ليس نقصك
وجهدك وكل حرصك   مع والديك يا كاهن

الثاني يقال خاصّي   لمن تاب وقد كان عاصي
وابنا واقنا كاسي   ولبسك يا كاهن

الثالث لمن هو القدّاس   ولمن حضر في القدّاس
ولكل اولاد الناس   احيا واموات خازن

هذا عظيم الاجرا   عالي تراه في الحضرا
تناولهُ وتدعى بالقدرا   تتصرّف به يا كاهن

الرابع ثبت بارسال   لامنا اليمه وتنقال
هي وحدها به تمتال   ما هي بتصريف كاهن

لكنه بتصريف الباب   مع الروسا والاصحاب
م ينفقوه على الاحباب   افتهم ذا يا كاهن

وجاء في آخر انجيل مرقس ما يلي ، وبالحبر الاحمر :

« كمل الانجيل المقدس المقدس كرازة مرقس البشير المتكلم بالرومي في مدينة رومية » .

ثم بحرف كرشوني :

«فلمّا كان تاريخ سنة الإسكندر (١٩٨٨) يوناني كمل هذا الكتاب المبارك الانجيل المقدس في ايام سكانة الدير المعمور مار سركيس ريفون في بلاد كسروان(١ في معاملة الشام ، الكهنة القس عازار والقس يوسف والقسيس سليمان واخا عبد الرب والشدايقة الشدياق سركيس واندراوس وجبرايل ، وفي ايام الشيخ ابو قانصوه (الخازن) والمطران جرجس حبقوق البشملاني . الله يأجرهم دنيا واخرى » .

ثم تأتي هذه النبذة وهي :

« وفي تلك السنة (١٩٨٨ يوناني) جاء الجراد وزحف وأكل الزرع وما خلّا شيء ، وكان محل عظيم في جميع الغلات وغلا شديد كان في تلك السنة » .

وورد في آخر انجيل لوقا :

« كمل انجيل لوقا البشير المتكلم باليوناني في سكندرونه بمعونة الله تعالى » .

ثم جاء في الحقل السرياني ما ترجمته :

« صلّوا على الخاطئ يوسف من بيت مبارك الذي كتب انجيل ربنا » .

وعلى هامش احد اناجيل يوحنا صفحة ٨٥٠ ، ورد اسم ناسخ هذا الكتاب ضمن حلقة مستديرة مرسومة على شبه الختم ، وفي محلّ آخر على هذا النمط ايضاً بالعربي والكرشوني :

«يوسف باسم قسيس ابن القسيس سليمان ابن مبارك(٢ من قرية غوسطا بطحا ١٦٧٧م» .

١) راجع مقالاً للخوري ابراهيم حرفوش : الاديار القديمة في كسروان – دير مار سركيس ريفون . المشرق ٨ (١٩٠٥) ، ص ٦٧، ٣٤٧، ٧٥٢ ومقالاً للاب انطونيوس شبلي : جولة في كسروان ، دير مار سركيس ريفون . المشرق ٢٦ (١٩٢٨) ص ١٢٨ .

٢) أطلعنا السيد الفرد عبده مبارك من ريفون ، رئيس محاسبة في وزارة الاشغال العامة ، على كتاب خطيّ كُتب بالحروف السريانية (بالكرشوني) التي تُلفظ بالعربية يسمّى : « تفسير انجيل مار يوحنا الرسول لأبينا المكرّم كورنيلوس بن كورنيلوس الحجري الراهب اليسوعي أجزل الله فضله » . تحتوي مقدّمته ثلاثة فصول ، وهو مجلّد ضخم ، مكتوب على ورق عادي بحبر اسود وعناوينه بحبر احمر ، قد خرق الحبر ، لكثرة الزاج فيه ،

وجاء في آخر انجيل يوحنا بالخط الكلداني ما يلي :

« كمل كتاب الانجيل المقدس بشارة يوحنا المتكلم في اليوناني بافسس » .

ثم وردت هذه الكتابة بالسرياني وهي :

ܫܠܡ ܟܬܒܐ ܕܐܘܢܓܠܝܘܢ ܕܝܘܠ ܦܘܪܫܢܐ ܟܠ
ܐܣܬܒܪ ܐܝܟ ܣܟܠ ܥܡ ܟܠ ܟܬܒܝܢ ܘܐܬܠܠ ܕܟܠ ܐܝܟ

بعض سطور صفحاته . علق ناسخه نبذةً في آخره ، تتضمن اسمه ونسبه وبعض افادات ، وهو من سلالة القس يوسف ابن القس سليان مبارك ناسخ كتاب الانجيل الذي نحن في صدده . واليك النبذة المذكورة بالحرف الواحد :

« اللهمَّ لاحظنا بنعمة التوفيق ووفّق لنا الخلاص بنعمتك امين . ولا تسمح بابتعادنا عن كنيستك المقدسة الرومانية التي أنت رأساً عليها ماري بطرس سليحك وسائر خلفائه أحبارك الرومانيين . وانا الناقل المترجم الحقير اعترف اني أحيا وأموت على هذا الايمان خاضعاً لتلك الكنيسة المقدسة المعصومة من الغلط والدنس ، ولرأسها الذي يملك يومئذٍ علينا وهو الكليّ الغبطة بيّوس التاسع . دامت رياسته علينا امين . وبأيام غبطة السيد البطريرك ماري بولس بطرس مسعد المشتوقي الكليّ الطوبى . وبأيام السادات المطارين : المطران عبدالله بستاني والمطران بولس موسى والمطران يوسف رزق والمطران نقولا مراد والمطران يوسف جعجع والمطران اسطفان الخازن والمطران يوسف المريض والمطران بطرس البستاني والمطران طوبيا عون والمطران بطرس مسعد عشقوتي (شقيق البطريرك مسعد) . تم بقلم كاتبه سركيس ابن جبرايل مبارك ابن سركيس ابن شمعون ابن الخوري ابراهيم ابن الخوري جرجس ابن القس سليان ابن أبو يوسف مبارك . وذلك في مدرستنا ماري سركيس ريفون بأيام عمي الخوري صالح ريّس المدرسة وبأيام عمّي الشمّاس الرايلي فرنسيس ابن الخوري جبرايل . وكان ذلك في اول يوم من شهر نوّار (ايّار) سنة الف وثمان مائة وتسعة وخمسين مسيحيّة . وكانت سنةً ضيّقة سنة ضُربت الكروم والتوت وانباع رطل القمر بعشرة قروش ودرهم بزر القزّ بثلاثين قرش . وكانت سنة حركات (حرب وقتال) وغوشات في كسروان ما بين المشايخ الخوازنة والفلاحين وكلٌّ يتملّل بما عنده والحق أعلم به . وكُتب (هذا الكتاب) من يدي لاجل الضرورة والمازة ولا تلوموني اذا وجدتَ غلط إصلحه يا ايها القاري لانني متعلّم لستُ بمعلّم . وهو اول كتاب كتبتهُ الله يصلح حالك . واحذر بما تقول ، عنك يُقال . وفي هذه السنة كان ابتدا عمار مدرستنا ريفون عن يد المعلّم سمعان حريق شويري نجار أجيد الجديد وكان عطر قوي ويرد وكان كرادجي (متسلّم بيت المؤنة) عندنا في المدرسة القس قرنتيوس المتيّر ابن مرتينوس ابن الخوري طانيوس المتيّر ريفوني الراهب بلدي لبناني » .

ܘܒܥܘ: ܘܨܠܘ ܥܠܝ ܐܚܝ ܚܒܝܒܐ ܘܦܪܘܫܐ
ܡܗܝܪ̈ܐ ܘܡܠܦ̈ܢܐ ܒܚܘܪ̈ܐ ܘܩܪܘ̈ܝܐ ܕܡܦ̈ܢܐ ܘܡܦܢܝ̈ܢܐ
ܚܟܝܡ̈ܐ ܘܡܣܬܟܠܢ̈ܐ ܡܦܫܩ̈ܢܐ ܘܥܬܝܪ̈ܐ ܚܦܝܛ̈ܐ ܥܠ
ܒܨܝܪܐ ܘܗܕܝܘܛܐ ܘܒܥܝܪܐ ܘܚܝܘܬܐ ܘܣܟܠܐ ܘܡܒܛܠܐ
ܘܡܣܟܢܐ ܘܒܨܝܪܐ ܒܟܠܡܕܡ ܘܐܦܠܐ ܕܟܠ ܐܢܫ ܘܚܛܝ:
ܣܓܝܐܐ ܝܘܣܦ ܒܫܡ ܩܫܝܫܐ ܒܪ ܩܫܝܫܐ ܫܠܝܡܘܢ
ܡܢ ܒܝܬ ܡܒܪܟ ܡܢ ܩܪܝܬܐ ܕܡܫܝܚܐ ܒܒܚܝܐ
ܒܫܢܬ ܐܫܥܙ ܠܡܪܢ ܝܫܘܥ ܡܫܝܚܐ ܕܠܗ ܫܘܒܚܐ
ܘܠܐܡܗ ܒܬܘܠܬܐ ܘܠܩܕܝܫܘܗܝ ܐܝܩܪܐ
ܘܠܥܕܬܗ ܙܟܘܬܐ ܥܠ ܒܥܠܕܒܒܝܗ ܘܠܚܛܝܐ
ܪ̈ܚܡܐ ܘܥܘܕܪܢܐ ܕܐܫܬܡܠܝܘܗܝ

ترجمة هذه الكتابة السريانية

كمل (الكتاب) بعون الثالوث النير المتجزئ ، على يدي انسان اخطأ من كل بني البشر وزبل كل انسان وأدنى واضعف . صلّوا اطلبوا يا اخوتي الاحباء والعادقين الماهرين والملافنة الفاحصين والقارئين المجيبين والحكماء المستنيرين والمفسّرين الحاذقين والاغنياء المجتهدين ، على الحقير والجاهل والبهيم والحيوان والاحمق والبطّال والجاهل الناقص الدنيء ونفاية كل انسان والخاطئ كثيراً (١) ، باسم القس يوسف ابن القس سليمان من بيت مبارك من قرية بحة للمسيح بطحا بسنة ١٣٧٧ لربنا يسوع المسيح الذي له المجد والمديح ولامّه البتول والاكرام لقديسيه وليته الانتصار على اعدائها وللخاطئ المراحم والمساعد الذي انجزه .

ثم جاءَ في الحقل الثاني مقابل هذه النبذة السريانية المذكورة ما يلي بالحرف الواحد :

« وكان الفراغ من هذا الانجيل المقدس في شهر تموز المبارك من شهور سنة ١٦٧٧

---

١) قد اعتاد نسَّاخ الكتب الاقدمون ان ينعتوا انفسهم بمثل هذه الاوصاف والنعوت الدالّة على روح التواضع المتأصل فيهم .

مسيحية ، في ايام رئيس الاحبار البابا اينوشنسيوس الحادي عشر ، وفي ايام الاب المختار (المختار) رئيس الرؤساء مار اسطفانوس (الدويهي) البطريرك الانطاكي المتولي على ملّة المارونية ، وفي ايام سادا تنـا المطارنة المكرّمين المطران جرجس (حبقوق) البشعلاني والمطران جبرايل البلوزاني والمطران يوسف الحصروني والمطران بطرس (مخلوف) النوسطاني والمطران يعقوب الرامي والمطران بولس المدناني والمطران يوحنـا التولاني والمطران ابراهيم الـسراني . هؤلاء المذكورين الله يديم رياستهم زمانًا طويل ويرحمنا الرب في بركة صلاتهم آمين » .

وعلى ورقةٍ بيضاء في آخر هذا الكتاب حجّة رسميّة بالزام تقدمة قداديس معيّنة بخط الشيخ فيّاض الخازن وتوقيعهِ وختمه بالحروف العربية . واليك نصّها بالحرف الواحد :

وجه تحرير الاحرف : هو ان (انا) اتفقنا نحن والكهنة الذي (الذين) في دير ريفون وهم الخوري يوسف والخوري سليمان واولاده القس يوسف والقس سركيس والقس ايوب والقس اندراوس واندراوس الدرعوني وكل من يكون بدم في هذه (هذا) الدير المبارك المسمّى بدير مار سركيس ريفون وعلى اسم ستنا العذرى والقديس مار الياس والقديس مارجرجس(١ وكل من يخدم هذه الهياكل المقدسة ، ان يكون على اسم كاتب هذه الاحرف ابو قانصوه فياض ابن ابو نوفل قداديس مها يكون موجود كهنة في الموضع المذكور . يوم الجمعة الى والده ويوم السبت ويوم الاحد يكون على اسمه لنفسه . وكذلك يوم الاثنين والثلاثاء يكون على اسم المطران جرجس حبقوق لانه كان متني في عمارات الموضع وحاطط من اكلافه وصار باتفاق على رضا الجميع المذكورين والله الوكيل بين الجميع . والكل يكونوا مجتهدين في عمار هذا الموضع وكل من له اجرة على قدر تعبه .

ولما تمّ الحال على هذا المنوال كتبنا هذه الاحرف شهادة لاجل ما (من) يأتي بعدنا من الكهنة ويسكنوا هذا الموضع كيف يكون سلوكهم وقوانينهم . ونحن كذلك نوصي اولادنا ودريتنا انهم دايمين (دائمًا) يكونوا مساعدين ومناظرين على عمار هذا المقام بكل قدرتهم وجهدهم والله الموفّق .

حرر ذلك سنة الف وستماية وواحد وثمانين مسيحية في خامس عشر شهر نوّار من السنة المذكورة نهار عيد الستّ السيّدة وهو يوم تكريس المدابح المقدسة المذكورين على يد سيدنا المطران جرجس حبقوق في التاريخ المبيّن اعلاه . ويكون فاضل من الجمعة يوم الاربعاء والخميس يكون الى القسوس والرهبان الذي (الذين) في الدير صح صح صح(٢

كاتبه

فياض ابن الخازن

(الختم)

---

١) قد شيّدت ثلاثة مذابح في كنيسة هذا الدير على اسم هؤلاء القديسين الثلاثة .

٢) ان هؤلاء القسس والرهبان الذين ذكرهم الشيخ فياض الخازن في هذا الصك

والمطران جرجس (حبقوق) عاد سمح الى الرهبان في يوم الثلاثا ولا يكون له إلّا يوم الاثنين لا غير . وكذلك شارطنام ان لا يكون راهب ولا راهبة في الدير إلّا على رضانا وخاطرنا . وكذلك الريّس الذي يكون لا يفعل شي من امور تلزم المشورة إلّا بشورنا . وبعدنا يكون هذا الشي في يد الكبير من اولادنا واولاد اولادنا واولاد اولادنا ، ومتى ما حضر من درّيتنا احد في هذا الدير المبارك يكون هو المتكلّم ولا يكون فوق يده يد . وعلى هذا وقع الشروط والاتفاق والله الوكيل بين الجميع .

صح . وكذلك شرطوا الرهبان على حالهم انهم يعملوا قوانين الرهبنة ولا احد منهم يسل له رسال ولا مفتي بكل جميع ما دخل لهم يكون الى الدير . وهذه شروطهم بحضور حضرة سيدنا المطران جرجس(١

كانوا يتقيدون بنظام الرهبان البلاد في دير مارسركيس ريفون ويخضعون مباشرةً امّا لسلطة البطريرك وإمّا لسلطة مطران الابرشية المتولّج شؤونها من قِبل السيد البطريرك ، كما كانت طريقة عيشة النسّاك والزهّاد القديمة في جبل لبنان ، قبل نشأة الرهبانية البلدية اللبنانية المعترف بها من الكرسي الرسولي المقدس .

١) يظهر من ذلك ان كتاب الانجيل هذا الذي نحن في صدده كتبه الناسخ القس يوسف في دير مار سركيس ريفون واتصل بالشيخ فياض الخازن المعروف بابي قانصوه وحصل عليه الشيخ يوسف فرنسيس ابي جبر الخازن من احد سلالة الشيخ فياض . وهذا الصك المبيّنة فيه القداديس والمكتوبة فيه هذه الشروط نقله بحرفه الشيخ فياض الموما اليه على احدى اوراق هذا الانجيل، عن النسخة الاصلية الحاملة توقيعه وتوقيع المطران جرجس حبقوق والرهبان المذكورين دلالةً على اتفاقهم على هذه الشروط .

كتاب

مختصر تاريخ جبل لبنان (مخطوط)

النسخة الاصلية ، وهي اثر أُنُف لم ينشر قبلُ

تأليف الشماس الشيخ انطونيوس ابي خطار المعروف بالعينطوريني

شيخ مشايخ الجبة ، وجد بطل لبنان يوسف بك كرم ، لوالدته

نشره لاول مرة ، مع درس وتعاليق

الاب اغناطيوس طنوس الخوري

الراهب اللبناني (تابع)

فاشتدت الفتنة بين الامير علي ، واخيه الامير احمد . ثم اصطلح الامر بينهما على انهما يقتسمان بلاد وادي التيم بينهما نصفين . فتولى [٣٥] الامير علي حاصبيا ، واستقر فيها . وتولى الامير احمد راشيا ، واستقر فيها الى عصرنا هذا . الا انه ، لما كانت سنة الف ومائة وتسعة ه. (١٦٩٧م.) ، توفي الامير احمد المعني ، وانقطعت به السلالة المعنية ، اجتمع وجوه جبل الشوف واكابره ، واحضروا الامير بشير ابن الامير حسين ، ابن الامير احمد ، امير راشيا ، لانه كان ابن شقيقة الامير احمد المعني ، واحضروه الى الشوف ، وجعلوه عليهم . وتولى مكان آل معن ، فاستقام له الامر بعد امر يطول شرحه . واستقر في دير القمر ، واضعاً يده على جميع عقارات آل معن ، واقطاعهم وولايتهم ومتروكاتهم ، الى ان توفي بعد ولاية تسعة سنين . وكانت وفاته سنة ١١١٧ ه (١٧٠٥م.) .

ولمّا توفي نهض وجوه الشوف ومشايخهم ، واحضروا الامير حيدر ، ابن الامير موسى ، من امراء حاصبيا ، وجعلوه والياً عليهم ، مكان الامير بشير. وكان هو الاحق بالولاية ، لانه كان ابن ابنة الامير احمد المعني المقدم ذكره . استقر والياً واميرًا يكسو الامارة ثوب الصيانة ، واميناً ادى الولاية حق

الامانة . فتملكها باضي سعده ، واورثها لبنيه من بعده . وبقي اميرًا الى ان توفي سنة ١١٤٣ هـ. (١٧٣٠ م.) ، بعد ولاية ست وعشرين سنة . وترك تسعة اولاد ذكورة . فتولى بعده اكبر اولاده ، وهو الامير ملحم ، وبقي حاكمًا خمسًا وعشرين سنة . فتولى بعده اخوته : الامير منصور ، والامير احمد سنة ١١٦٧ هـ. (١٧٥٣ م.) .

والامير ملحم توفي سنة ١١٧٣ هـ. (١٧٩٥ م.) . ثم تغلب الامير منصور على الامير احمد ، بعد مدة قليلة ، وانفرد بالولاية ، الى ان تغلب عليه ابن اخيه الامير يوسف ، ابن الامير ملحم ، واتخذ الولاية منه ، وذلك سنة ١١٨٥ هـ. (١٧٧١ م.) . وكانت وفاة الامير منصور سنة ١١٨٨ هـ. (١٧٧٤ م.) .

واستقام الامير يوسف واليًا . وكان سابقًا اخذ من وزير طرابلس ولاية بلاد جبيل سنة ١٧٦٣ م. وكان حاكمًا عادلًا حليمًا رحومًا. وعمر البلاد ، ومشى به ديوس . ورد النازحين ، وسنّ سنن وطرايق عادلة ، ومشّى الحال باحسن منوال [٣٦] . واستقام حاكمًا مدة سنين . ومن جرى اطوار الجزار ، والي صيدا ، سلّم الحكم بخاطره لابن عمه سعادة افندينا الامير بشير ، ابن الامير قاسم ، ابن الامير عمر الشهابي ، في سنة ١٢٠٣ هـ. (١٧٨٨ م.) .

وسعادته (الامير بشير) حكم تحت دير القمر ، وبلاد جبيل وتوابعها ومشّى كل عدل وحلم ، واجرى الاحكام الشرعية على العال والدون . ولم قام من قبله حاكم عادل مثله . ومشّى الحق والسابلة . ولا يقبل رشوة ، ولا يحابي مع احد . وكان اغلب دعاوى رعيته يسمعها بذاته . وحقيق من مثله يسمّى ملك من ملوك العدل . نسأله تعالى يطيل في ايام دولته لراحة عبيده . وهو امير هذا العصر والاوان ، ادامه الله الى منتهى الزمان امين[1] . وكانت

١) لعمري ان هذا المديح يخصه المؤلف بالامير بشير ، ان هو الا تزول عند واقع الحال اضطرارًا . وتلك سنّة يرعاها الناس في جميع العصور ، فيمدحون حكام عصرهم ، ولو على غير الحقيقة ، خوفًا من بطشهم . . . وقد رأيت في ترجمة المؤلف ، في مستهل هذا الكتاب ، كيف فتك به الامير بشير ، لانه كان من غير مواليه . وها هو هنا يمدحه بهذا الاطراء المبين . . .

وفاة الامير يوسف في عكا سنة الف ومايتين هـ. (١٧٨٥ م.) ، بعد ولايته ستة وعشرين سنة .

٥ً اصل بيت ابللمع

يقال ان اصلهم من بني فوارس ، احدى الطوايف العشرة ، القادمين من الديار الحلبية الى غربي لبنان . ومن سلايل فوارس كان ابو اللمع . وسكن بنو اللمع ، بعد تفريق المذكورين في الديار اللبنانية ، في متن لبنان ، الى ان قويت شوكتهم ، فصاروا مقدمين . وبقيوا على ذلك الى ان قدم بنو شهاب الى الديار اللبنانية ، وظهر منهم الامير حيدر ، وحصل حرب بين اليمنية والقيسية . فاشتهرت شجاعة بني اللمع في يوم عين دارا ، وذلك سنة ١١٢٣ هـ (١٧١١م.) . فأمّرهم الامير حيدر ، واطلق اسم الامارة على كبيرهم وصغيرهم. وهم باقون على ذلك الى عصرنا

٦ً اصل بيت رسلان

جدهم الاول هو الامير مسعود ابن رسلان ، ابن مالك . وهو الذي قدم مع الطوايف العشرة المذكورين . وعند قدومه ، سكن في ارض سن الفيل ، الواقعة على نهر مدينة بيروت . ثم نهض منها الى قرية الشويفات ، فعمّرها ، وتوطن فيها ، وبنوه من بعده الى عصرنا هذا .

[٣٧] ٧ً اصل بيت عساف وبيت سيفا ، حكام غزير

فلما الاسلام اخذوا كسروان وما يليها ، وحرقوها ، وبقيت خراب مدة سنين، كما هو مشروح عنها في تاريخ المطران جبرايل القلاعي اللحفدي . وحين طال هذا الخراب ، التزم ملك الشام (واليها) الى محافظة سواحل البحرية من العساكر الافرنجية . فارسل كراد وتركمان الى حماية هذه الاماكن، منهم امارة (امرا) الكراد الذين في كورة طرابلس . ومنهم كراد وتركمان سكنوا سواحل كسروان ، مثل زوق مكايل ، وزوق مصبح ، وزوق الخراب ، وغير اماكن في شطوط البحر . وبدا ملك الشام يعدهم ويقويهم في عساكر وذخاير ودراهم ، مدة مديدة . فظهر من هؤلاء الذين في الزواق ،

رجل يقال له عساف ، كان صاحب بطش وذو مال . فأخذ السكنة في قرية غزير . وكان يومئذ يسكنوها عيلة يقال لهم حبيشية ، الذين هم بها سكان الى يومنا هذا .

وعساف المذكور ابتنى سرايا في القرية المذكورة، وبجانبها جامع. واشتد بأسه في قرية غزير ، وتأمر ، وحكم ، وامتد حكمه من حد نهر الموت ، الذي ما بين انطلياس والبوشرية ، الى حد نهر البارد والضنية . وتقوى بأسه وعظم مقداره ، واجرا كل عدل . وكان يوما يحكموا من تحت يده ، في بلاد جبيل والبترون وجبة بشري ، مقدمين ، كل بمكانه ، تحت طاعة الامير عساف . وتقضى مدة حياته . وخلف ولد يقال له الامير مصطفى . وتوفي الامير عساف في شيخوخة . واقتفى اثاره ولده الامير مصطفى ، وتولى جميع الاماكن والارزاق التي كانت بيد والده . واستقام حاكمًا مدة حياته . وخلف ولدًا يقال له الامير محمد . وكذلك المذكور تولى مكان ابيه .

وفي ايامه سلم حكومة بلاد جبيل الى بيت حمادة ، بسبب قتلهم مقدمين جاج ، كما هو موضح في تاريخ بيت حمادة . وفي ايامه ، قاموا بيت الشاعر من تولا الى المرقب[1] وولى بيت حماده بلاد البترون. واستقام في غزير حاكمًا. وتوفي متوسط العمر . ولم يترك زرعًا .

فالشيخ ابو منصور حبيش، الذي كان كاتخدا الامير محمد ، توجه الى مدينة عكار ، واحضر محمد ابن سيفا ، وجوزه حرمة الامير محمد عساف . وتولى هذا الامير تحت بيت عساف ، مع ايالتهم وارزاقهم واسبابهم . وتولى جملة سنين . وتوفي بشيخوخة . وتولى ولده مكانه كم [٣٨] سنة . وحصل بينه (بين ولده) وبين الامير فخر الدين ابن معن ، حاكم جبل الشوف ، جملة شرور (معارك) . وروموا قصات (كذا) في ارض نهر الكلب ، وارض جونيه ، واستقام مدة سنين في هذه الحال والمضاغنة ، تارة يغلب ، وتارة ينغلب .

١) لا يزال نسلهم هناك حيث يدعون بيت عددا . وقد نزح رهط منهم الى طرابلس فتوطنوها الى الان ، على ما فصلنا بايفاء في كتابنا « تاريخ طرابلس » المعد للطبع قريبًا انشاء الله .

وتوفي (ابن محمد سيفا) ، واقام ولده بعده . واستكن الحال بينه وبين امرا جبل الشوف ، الى ان قام الامير احمد ابن معن ، رجع واشتهر نار الحرب بينهم ، كما كانت سابقاً . وصار بينهم جملة شرور . في هذا الاثنا قوي الامير محمد معن ، وطرد ابن سيفا من غزير ، وحرقها . وبعده رجع ابن سيفا الى غزير ، وحصلت مهادنة بينه وبين الامير احمد . واستقام ابن سيفا في غزير ، الى ان ظهر في بيت سيفا نفر (نفور) عام من قبل الدولة العلية ، واقامهم من عكار وسيد وغزير . وتلاشت دولتهم من كل محل . وتبعت قرية غزير وكسروان الى حاكم الشوف ، ولم تزل تابعة تحت جبل الشوف الى يومنا هذا .

أصل مشايخ بيت حمادة

هم قوم من العجم ، من بكارة . وكان جدهم حمادة من بعض اهلها . فنشأ فيها واشتهر بين اهلها . ثم اراد الخروج الى سلطان تلك الديار . فوجه اليها السلطان جيشاً ، فقتل من تعصب له . وفر حمادة باهله وعشيرته ، فقدم جبل لبنان ، ونزل الحصين من تلك الديار . ثم كثر بنوه ، وتولوا تلك الامصار ، كما يأتي ذكره في محله .

ومن بعد حضور الشيخ حماده الى قمز (بصرود كسروان الشمالية في جوار افقا) ، تفرقت طوايف عشيرته ، الذين حضروا معه ، في جبة المنيطرة ، ووادي علمات . وكان له اخوة ، وهم : احمد ابو قانصوه ، الذي فيما بعد حكموا اولاده الهرمل . والحاج يوسف ، والقضبان الذي منه تسمت المناضبة ، اي بيت حسن ملحم . وبيت الحاج يوسف ، وبيت ابو قانصوه ، وبيت حسن ملحم ، صار يحرر لهم الشيخ اسماعيل اولاد العم .

والشيخ حماده خلف سرحال ، واحمد « ابو زعزوعه » الذي فيما بعد اولاده حكموا جبة بشري . وخلف ايضاً ديب ، الذي فيما بعد اولاده حكموا الضنية . واعطى ابنتيه الى مقدمين جاج ، الذين كانوا حكام بلاد جبيل ، وهم اسلام سنية . هؤلاء المقدمين ، لا بد حصل منهم عصاوه على الامير احمد ابن عساف ، حاكم غزير . وحين طالت هذه [٣٩] المنافرة بينهم ، ارسل الامير احضر اولاد الشيخ حماده ، واختلى مع احمد وديب سراً ، وتكلم

معهم انهم يقتلوا مقدمين جاج ، ويعطيهم حكومة بلاد جبيل . فما قبلوا بذلك ، لسبب انهم (مقدمو جاج) آخذين خياتهم . وحين رجعوا لعند اخيهم الذي لسبب صغره ما كان حاضر الجمعية (المؤامرة) ، لزّ عليهم (الحّ) احكوا له . فاستفهم (استفظهم) وتوجه لعند الامير سرا ، وتدرّك له (تعهد) في قتل المقدمين ، واخذ منه حجة في حكومة بلاد جبيل .

وتوجه هو واخوته الى جاج بحجة لمة معزه . وارتصدوا الفرصة ، حين حصلت لهم ، وقتلوا المقدمين ، واشهروا امر الامير ، واخذوا روسهم وتوجهوا الى غزير .. والامير لبس الشيخ سرحال على بلاد جبيل . والمذكورين احضروا بيوتهم (عيالهم) الى جاج ، وحكموا واستقاموا مدة .

والشيخ سرحال خلف الشيخ حسين . ونقل هو واولاده الى قرية تسمى فرحت ، في وادي علمات . وبوقتها كانوا المقدمين بيت الشاعر حكام في قرية تولا (البترون) ، معمرين بها سرايا عظيمة مليحة . فتحارفوا عليهم آل حماده حتى يقدروا يقيموهم . فما انقاموا معهم . عملوا عليهم حرفة ، هم وسيتهم (اتباعهم) ، وصاروا يضيفوهم كل يوم مرة او مرتين ، حتى ضعفت قواهم من الخرج (الصرف) ، وما بقي عندهم شي . فالتزموا قاموا من تولا وبلاد البترون ، وتوجهوا الى بلاد المرقب ، واستقاموا عند حكامها .

ولزيادة نشاطهم وكرمهم ، انعرفوا في تلك الديرة ، وعند الدولة . وحين تغلظ خاطر والي اللاذقية على حاكم المرقب ، راسل بيت الشاعر سرًّا ، انهم يقتلوا حاكم المرقب ، ويحكمهم موضعه . فقتلوه في الصيد ، وتسلموا القلعة ، وحكموا بلاد المرقب . ولم يزالوا اولادهم من بعدهم حاكمين المحل المذكور الى يومنا هذا .

واما المشايخ بيت حمادة ، حين قاموا بيت الشاعر من بلاد البترون ، تسلموا البلاد ، وصاروا حكام بلاد جبيل وبلاد البترون . وصار منهم صولة عظيمة . وفي غضون ذلك ، حكموا اولاد ابو قانصوه الهرمل . والشيخ حسين خلف الشيخ سرحال . وهذا نقل الى ايليج ، اي ميفوق ، وعمّر بها عماره [٤٠] وسكنها .

وفي ذلك الحين ، الشيخ احمد حكم جبة بشري . واولاد الشيخ ديب حكموا الضنية . وامتد حكم بيت حماده الى حد عكار . وصار لهم اجازة على كامل المقاطعات ، على بر الشام ، لحد بوابة حماه . وعملوا رمية (فريضة) على كل ضيعة من تلك البلدان .

وحسين في ايليج خلّف اسماعيل وابرهيم وعيسى . واستقاموا مدة في ايليج . وكانت البلادين شرك (شراكة) . وتوفي الشيخ سرحال ، ودفنوه في ايليج . وبعده صارت خلفة بين الاخوة ، اسماعيل واخوته ، وقسموا بينهم : ابرهيم وعيسى اخذوا بلاد البترون حصة ، بما انه كان عامر . وبلاد جبيل بوقتها كانت مدقّره (متأخرة) احواله . فاخذه اسماعيل مع وادي علمات ، والفتوح وجبة المنيطرة . وسمية بيت حماده تبعه (خاصة اسماعيل) ، وتدفع ميرتهم ، ويدفع نفع السمية .

ونقل من ايليج لسبب قربتها للدولة وسواحل البحر . وعمر سرايا في قرية لاسا (قرب افقا) في جبة المنيطره ، وسكنها ، واشتد بأسه في كامل المقاطعات . وصارت تهابه كافة حكامها . وبقي امره نافذ الى حد حلب ، من خوف الناس منه . واشتدت شوكة بيت حماده ، لان صار لهم جايز (نفوذ) على كافة المقاطعات . واخذوا من الكوره والزاوية مزارع وارزاق ، وبقيوا بكليك (اي ملك الدولة) ليومنا هذا .

والشيخ اسماعيل خلّف تلات اولاد ، وهم : عبد السلام ، وعبد الملك ، ونَصّر . واستقاموا في طاعة والدهم ، واشتدت شوكتهم ، وتعاظمت دولتهم ، وصاروا ملجا الى الصادي والغادي . وامتد جايزهم لحد بلاد بعلبك . واخذوا شمطار بكليك لهم ، واستقام اخال معهم مدة سنين . وبعد وفاة اسماعيل ابيهم ، قسموا بلاد جبيل بينهم متالتة (ثلاثة اقسام) . اما السمية بقيت بيد الشيخ عبد السلام وتحت امره ، بما انه الاكبر . وهؤلاء الثلاثة اقتفوا آثار ابيهم ، وتملكوا مكانه .

وبعد مدة ، وهم بهذا الحال ماشيين ، حصل منهم ومن اتباعهم واولادهم ، تغير بشلقة (اعتداء) وبشاعات في حق الفلاح . ولم يسلكوا آثار ابيهم في

العدل والرحمة. ومن جور (جراء) ذلك ، التزمت اهل المقاطعات تقوم عليهم، لاجل رفع [١١] هذا الجور عنهم . فقاوموهم (طردوهم) اولاً من بلاد عكار. واهالي الضنية قاموا اولاد حسين ديب من الضنيه ، بعد جملة شرور (مواقع حرب) قتل من الفريقين .

وبعد مدة ، اهالي جبة بشري قاموا على اولاد احمد ، وصار بينهم جملة شرور ، وجملة قتل من الفريقين. وقاموا من الجبة سنة ١٧٥٩م. واما باقي شرح قيامهم من الجبة ، طويل ، يأتي ذكره في الكفاية في تواريخ (الكلام عن) الجبة.

يذكر ايضاً انه في تاريخ سنة ١٧٥٢م ، انعزل محمد باشا من طرابلس ، وصار قيمقام الدولة . وكتب الى باشا الوزير ليركب (ليهجم) على بيت حماده . فهربوا من قدامه الى بلاد بعلبك . ولحقهم وقتل منهم ناس كثير ، ودنق منهم ناس في الثلج ، في الجرد. واما بيت حماده الذين كانوا في عكار ، والضنية والجبة ، رجعوا استقاموا (سكنوا) في بلاد جبيل ، بنوع ساكن للغاية. وبقيوا اولاد الشيخ اسماعيل حكام ، كما كانوا في بلاد جبيل والبترون وقصر اقتدارهم . الى ان في سنة ١٧٦٣م حكم الامير يوسف الشهابي من والي طرابلس ، كما مر ذكره في محله .

واخذ بلاد جبيل والبترون ، وجبة بشري . وتولى الارزاق التي كانت بيدهم ، في المقاطعات المذكورة ، والمقاطعات البرانية . وبدت تضعف شوكتهم . وصار بينهم وبين الامير يوسف جملة شرور . الى ان تضعضعت احوالهم ، وتشتت شملهم . ونزح البعض منهم الى بلاد بعلبك ، والبعض الى الهرمل والقيرانية . وبقي لهم رزق قليل في بلاد جبيل . ولم صمد بيدهم محل سوى الهرمل ، بما انه طرف البلاد . وصاروا ياخدوها من الامير يوسف ، ويدفعوا ميريها وعوديتها ، وجميع تكاليفها ، بنسبة (مثل بقية) البلاد .

واما بقية سمية (اتباع) بيت حمادة ، بقيوا كل منهم في محله ، بنسبة الفلاحين ، في جبة المنيطرة ووادي علمات ، هم والطوايف . واما جب الشيخ اسماعيل ، اولاد حمادي الاول ، واخوته ، صاروا متفرقين ، كما ذكرنا ، ليومنا (الى يومنا) هذا ، الذي هو سنة ١٨١٨ .

٧ً اصل امارة (امراء) الكراد (الاكراد) حكام الكورة

هم قوم اكراد وضعهم السلطان سليم العثماني ، في مقاطعة الكورة ، محافظين للثغور البحريه ، في ذيل لبنان ، وذلك سنة ٩٢٥ هـ . (١٥١٩ م.). فمشى (كَبُرَ) امرهم ، الى ان صاروا امرا المقاطعة المذكورة . وسلايلهم لم تزل باقية الى الآن .

٨ً اصل بيت رعد [٤٣]

هم ، على ما قيل ، انهم من حوران . وقدم منها جدهم الاول رعد ، الى ديار طرابلس ، وولاتها يومئذ آل سيفا . فانتمى اليهم . ونجب في خدمتهم فولوه مقاطعة الضنية من قِبلهم . فنجب في تلك الولاية . وتخلف بعده ولده محمد ، وبنوه من بعده ، الى عصرنا .

٩ً اصل المراعبة (آل مرعب في عكار)

هم قوم امجاد . وعلى ما قيل ، ان اصلهم من بعض طوايف الاكراد الرشوانية . ومنازلهم بين مدينتي مرعش وبسنا . وكانوا مقدمين على عشيرتهم . ويقال لهم في اللغة التركية « بيك اوغلي » اي بنو الامير . وقدم من بني الامير هؤلاء ، مرعب ، الذي هو جدهم الاول ، ومعه بعض اخوته ، الى الديار الطرابلسية . وكان ذو مال . وتقرب الى وزيرها في العصر (يومئذاك) . فمات اخو مرعب ، وبقي مرعب وحده . وطاب له المقام فيها (نواحي طرابلس) الى ان توفي بعد شهرته .

فقام ولداه ناصر وداود ، فاقتفيا آثار والدهما بالتقرب الى ذوي الصدور . وتوطنا في سهول ديار عكار . فخلف داود اولاداً شهروا باسمه ، فقيل لهم الداودة . وخلف ناصر اولاداً شهروا باسم جدهم ، وقيل لهم « المراعبة » . ومن اولاد ناصر ، شديد الذي شاع ذكره بالفروسية ، والشجاعة . وكانت ديار عكار ، بعد انقطاع آل سيفا ، تولاها بنو حمادة . ولم يستقم امرهم فيها . فتولاها بعدهم ولاة متفرقون . فآل امرها بعد ذلك الى شديد المذكور ، فاستولى عليها ، وشيَّد حماها . وهو الذي قتل عيسى كبير الحمادية ، في دير حماطورة (في الزاوية — شمالي لبنان) ، في ٢٣ ادار سنة ١٧١٤م . ثم مات

شديد المذكور بعد مدة من عمره . وخلّف عدة اولاد . وقويت شوكتهم ، الى ان صار بلشا ومتسلمين في طرابلس . واولادهم تكنوا بيكاوات . وتملكوا عكار الى عصرنا هذا .

[سه] ١٠ً اصل مشايخ بيت الخازن

يقول مؤلف المنارة (البطريرك الدويهي) في تاريخه ، انه في تاريخ سنة ١٥٤٥ (م.) نقلت اهالي قرية جاج من بلاد جبيل الى بلاد كسروان ، لما حاصل به من العدل والامان. فالشدياق سركيس الخازن سار الى قرية البوار وسكن مدةً ما . وطلع منها وسكن مزرعة بلونة ، التي في ارض قرية عجلتون . ثم هذا الشدياق المذكور سكن بلونة عدة سنين ، وصار له بنين ، وظفر بالنعمة من امراء بيت معن ، حكام تحت دير القمر ، لسبب انه سابقاً ربّى ولد منهم عنده في المزرعة المذكورة .

وصار الشدياق (سركيس) واولاده كواخي بيت معن . وقويت شوكتهم وسطوتهم عند الدول والحكام ، شرقاً وغرباً . وعمروا بلاد كسروان ، وسكنوه ، وصاروا حكام فيه . واقاموا منه الامم البرانية (غير المارونية). واقتنوا به ارزاق ساحل جرد .

وبعد تلاشي بيت معن ، حضروا امرا بيت شهاب ، وحكموا تحت دير القمر . ولم يزالوا بيت الخازن كواخي عندهم ، من حاكم الى حاكم . حتى لشدة سطوتهم ، استحقوا ان يتحرر لهم من بيت شهاب « الاخ العزيز » مثل مشايخ الديرة (البلاد) الكبار ، وحضروا جميات (اجتماعات سياسية وادارية) البلاد مثلهم . واقتنوا رزق في سواحل بيروت وبلاد جبيل ، شي كثير . وصاروا ملجا ومقصد للجميع . ومن جرا مساواتهم (سلوكهم او تدبيرهم) الحسن ، التجت اليهم كافة الطوايف التابعين الكنيسة المقدسة ، وعمروا ديورة ، مثل بطرك الارمن وبطرك السريان ، وبطرك كواتلة الروم . وجملة رهبان من هذه الطوايف عمروا ديورة ، وسكنوا كسروان ، وعمروا جملة مدارس .

وفي ايامهم ايضاً ، يذكر مؤلف المنارة ، انه في سنة ١٦٢٨ م . ،

اهتم القس حنا ابن القس يوسف ، من بيت محاسب ، من قرية غوسطا ، في تجديد بناية دير مار شليطا مقبس في بلاد كسروان (قرب غوسطا) . وصار الاول في ساير الاديرة ، التي انشئت في بلاد كسروان . وكان اخوه (اخو القس حنا) القس سركيس مترهب بدير مار انطونيوس قزحيا . انتقل الى عنده . وصار بلاد كسروان ملجا للجميع .

والمشايخ المذكورين ذاع صيطهم في بلاد الفرنج ، وفي المجمع المقدس (في رومية) . وحضر لهم منه جملة تحارير ، من الاحبار الرومانيين ، يمدحوا غيرتهم ، ويوصوهم بان يحرصوا على طايفة [٤٤] الموارنة . وتوجه منهم ناس الى بلاد الافرنج ، ونالوا من ملوكها وامراهـا انعاماً جزيلة . ومن الجملة تشرفوا من الملك لويس ، ملك فرانسا ، ومن الدولة العثمانية بقنصلية بيروت ، كما محرر في رسالة الخوري يوسف مارون الدويهي ، عن اخبار الموارنة ، في الوجه (صفحة) ٧٩ . وحقيق هذه الطايفة (الخازنية) تستحق كل مديح ، لعظم ما جرى منها من اعمال الخير، وعمارة الديورة، ووقفهم رزقهم. وكذلك قام منها جملة بطاركة[١] ، ومطارنة ، وروسا رهبنات . ولم تزل تنمو وتزداد ليومنا هذا

١١ً اصل مشايخ بيت حبيش

اولهم من قرية يانوح ، بقرب قرية المغيرة (قرب العاقورا) ، في جبة المنيطرة . وحين صارت الدشمنة (العداوة) بينهم وبين العاقورة ، وخربت يانوح ، توجه جدهم الى قرية غزير ، بارض كسروان ، وسكن بها مدة . وصار له اولاد . وعمروا عماير ، واقتنوا ارزاق . وصاروا عيلة معروفة عند الجميع . وحين حضر عساف ، اول بيت عساف ، وسكن غزير وحكمها ، وامتد حكمه قبلي وشمال ، وجد المشايخ المذكورين سكان غزير . وتقدموا عنده ، كما يذكر في اصل تاريخ بيت عساف ، وبيت سيفا ، المحرر اعلاه ، في هذا الكتاب .

١) البطريرك يوسف ضرغام الخازن ، رئيس المجمع اللبناني ، سنه ١٧٣٦ (١٧٣٣ — ١٧٤٢) . والبطريرك طوبيا الخازن الراهب اللبناني (١٧٥٦ — ١٧٦٦) . والبطريرك يوسف راجي الخازن (١٨٤٥ — ١٨٥٤) .

وصاروا المشايخ المذكورين كواخي عند عساف واولاده من بعده ، مدة دولتهم في غزير . وبعدها حكموا بيت سيفا عوضهم ، ولم يزالوا بيت حبيش كواخي عندهم . وحين انقضاء دولة بيت سيفا ، حكم الشيخ ابو منصور حبيش قرية غزير ، من بيت معن ، واستقامت بيده ولاولاده من بعده . وقويت شوكتهم وسطوتهم وتعاظمت ، وانعرفوا شرقاً وغرباً . واقتنوا ارزاق في غزير ، وبلاد جبيل ، والفتوح ، تحرز . وصاروا من مجاويز بيت الخازن . وذاع اسمهم وصيطهم . وتوجه منهم جملة اناس الى بلاد الغرب ، ونالوا من ملوكها واشرافها خيرًا جزيل . ورجعوا الى غزير . ولم يزالوا بهذا الشان الى يومنا هذا .

١٢ً اصل مشايخ بيت الدحداح

جدهم الاول من العاقورة . وكان له معرفة وافراز ، وحظ معتبر . توجه الى بلاد بعلبك ، وصار ياظجي (كاتب) عند بيت الحرفوش مدة . وبعده رجع الى بلاد جبيل . وتقدم عند الشيخ سميعين (اسماعيل) حمادة ، وسلمه [٤٥] كلشي بيده . ثم سكن في طرابلس ، وعلّم ولده ابو ابراهيم لسان التركي والخط ، وصار بارعاً فيه .

ثم سكن قرية لحفد ، وصار له اولاد . والجميع تقدموا عند الشيخ سميعين واولاده ، كما كان والدهم . وبعد ما توفي الشيخ سميعين ، استقاموا مدة عند اولاده ، حسب عادتهم . واقتنوا ارزاق في بلاد جبيل والفتوح . وكان جميع رزقهم منعاف من قلم الميري . وبعد مدة توجهوا لسكنى قرية عرامون في بلاد كسروان . واقتنوا بها ارزاق وعماير . وبقيوا يدبروا في بلاد جبيل والبترون ، كما كانوا .

ثم توجهوا الى دير القمر ، وتقدموا عند بيت الشهاب . وكبرت دولتهم ، وصار لهم صيت حسن ، وانعرفوا عند الجميع . وهم عيلة اجواد اكرام ، يحق لهم كل مديح وشكران ، لانهم محضر خير ، مساعدين ومسعفين لقضا الاغراض لجميع الناس . وتقدموا عند الحكام . وصاروا من مجاويز بيت الخازن ، وبيت حبيش ، لسمو فضلهم ، وعلو شأنهم . واستحقوا ان يتحرر لهم من بيت

الشباب « الاخ العزيز » مثل مشايخ الديرة ، وبيت الخازن . ولم يزالوا بهذه السطوة والشان ، الى يومنا هذا .

١٣ اصل وتاريخ مشايخ بيت ضاهر

اصلهم الاول من قرية بقوفا التي في جبة بشري ، ما بين بشري واهدن ، وهي الآن خراب . والمذكورين عيلة اجواد اشراف ، مستقيمين الديانة . وظهر منهم اربع بطاركة[1] . وكانت كنوة عيلتهم في بقوفا ، بيت الرز . وظهر من عيلتهم ايضاً جملة حبسا ، سكنوا في وادي نزحيا وغيرها .

وحين خربت بقوفا ، من كثرة الثلج ، وجور الحكام ، نزلوا الى قرية كفرحورا في الزاوية (في جوار زغرتا) ، وسكنوا بها ، في عهد (سنة) الف وستماية م . وقام منهم واحد يقال له الشدياق مخايل ، صاحب عقل ومعرفة . وله خط حسن ، وبارع بكاشي . هذا عمل يازجي عند حاكم الزاوية ، مدة سنين . وانعرف عند الدول والحكام ، وذاع اسمه .

ولما تغير حاكم الزاوية ، حكم الشدياق (مخايل) مقاطعة الزاوية ، من وزير طرابلس . وصار الوزير له عليه خاطر . واستقام حياته كلها . ثم اولاده من بعده ، صاروا حكام الزاوية ، واقتنوا بها ارزاق بتحرز . وقويت شوكتهم وسطوتهم وبأسهم . واستحقوا ان يتحرر لهم [٤٦] من حكام تخت ديرالقمر « الاخ العزيز » ، مثل مشايخ الشوف ، وبيت الخازن ، وبيت حبيش ، وبيت الدحداح . وصاروا من مجاويز المذكورين . وتقدموا وكبروا عند الوزر (الوزراء) وغيرهم .

وظهر واحد (منهم) يقال له كنعان الضاهر . وكان بطلاً شديداً بكامل الاوصاف . وكان عظيم الشان والنخوة ، والشجاعة والفروسية والخفة (الرشاقة) ، احسن اهل عصره . حتى ضرب في اوصافه المثل . وله وقايع وامور شتى ، اهملنا كتابتها لزيادة عدتها . فانحسدوا منه اسلام طرابلس ، واشكوا عليه

[1] هذا على زعم المؤلف وحده . فان الدويهي لم يذكر الا ثلاثة بطاركة من اسرة الرزّي . وقد يكون المؤلف على حق . فان الدويهي يقول انه لم يظفر باسماء جميع البطاركة . (اطلب تعليقنا على هذه سلسلة البطاركة في موطنها من هذا الكتاب)

للوزير، عبد الرحمان باشا. فمسكه وحبسه مدة ايام. واعرضوا عليه انه يسلم ويصير عنده من كبار دولته. فما قبل ذلك. واجرا عليه كافة العذابات، ولم كان يتزعزع عن ايمانه.

وحين عرف ان مراد الباشا يقتله، عمل كامل الظروف، وبعناية الباري تسهّل له كاهن بالحبس، اي الخوري مخايل من اهدن، وعرّفه اعتراف عام. وثاني يوم ناوله جسد الربّ. وثالث يوم امر الباشا بقطع راسه، عند باب التبانه. ومات شهيداً. وظهر من جسده، بعد موته، جملة عجايب. واخذوا يده ووضعوها في سيدة الحارة، في طرابلس. وكان دايماً يظهر منها عجايب. وكان انتقاله في ٢ شباط سنة الف وسبعماية واربعين م.

وبعده لم يزالوا بيت ضاهر، واولادهم من بعدهم حكام الزاوية ليومنا هذا.

١٦ً اصل مشايخ بيت العازار (في اميون الكورة)

حضر جدهم الاول من قرية ازرع، في بلاد حوران، من برّ الشام المذكور. حضر الى قرية اميون، التي في كورة طرابلس، وسكن بها واولاده من بعده. واقتنوا بها جملة رزق. وانعرفوا عند الجميع، لا سيما عند دولة طرابلس. وحكموا تلت الكورة، شركة مع امارة الكراد. واستقاموا على هذا الحال مدة سنين.

وبعدها قسموا الكورة، هم والامرا المذكورين. واخذوا بيت العازار التلت، وهو اميون وتوابعها. واشتد بأسهم وقويت شوكتهم عند الوزير وغيره، وعند حكام الجبل. وصاروا يكفلوا للدولة كامل المقاطعجية. ومنهم مرعب حكم بلاد عكار سبع سنين وحده. وكانوا عيلة اجياد معروفين. وتقدموا عند كافة اقرانهم في ايالة طرابلس. وكانوا اصحاب شور ومعارف. ولم يزالوا حكام في عهدتهم، اي اميون وتوابعها ليومنا هذا.

(له صلة)

تيارا فلسفة الحقوق (تابع)

المبادئ الفردية والاجتماعية

بقلم الاب فليكس سوانيون اليسوعي

٥ — القرن السابع عشر

ان اول من نحييه هو هيغو كروتيوس (١٥٨٣—١٦٤٥) (Hugo Grotius) الذي اطلق عليه من يجهلون تاريخ الحقوق لقب « اب الحقوق الطبيعية » . وفي الواقع انه قد اوقظ تعاليم قديمة كل القدم.

وها هم ذو مفكرون آخرون كانوا اشدّ غرابة في آرائهم : لقد كان هوبس (Hobbes) (١٥٨٨—١٦٧٩) وولد وعاش في عهد الخوف ففي ايامه كانت حرب العمارة الاسبانية (الارمادا) والفوضى الانكليزية وحكم كرمويل وظهر كتابه القهر (Léviathan) سنة ١٦٥١ ، وقد كان هذا العالم تجريبياً في علم النفس ومادياً في علم ما وراء الطبيعة اي انه قد كان له ما ينبغي ان يكون ليجبل الكائن الاجتماعي والحقوق ومما قاله : ان الانسانية تخضع لقوتين متناقضتين : هما المنفعة والخوف ولقد انتبى الامر بالافراد لكي يتخلصوا من الخوف الذي يدبّه الانسان في قلب الانسان بان يتجمعوا كالقطعان ويضعوا انفسهم تحت حراسة طاغية يمنعهم من ان يمزّق احدهم الآخر ، وان قوة الامير هي التي تصنع الحق (Might is right).

وانه لامر شديد الغرابة ان يكون لتعليم الكالح هذا تأثير في فرنسة اكثر منه في انكلترة . امّا ديكارت فابتعد عن تعاطي السياسة ، ومما قاله : « من الواجب احترام الانظمة على ما فيها من شوايب.«انه من الصعب اذا ما هوت هذه الاجسام العظيمة ان ننهضها او ان نمسكها لكي لا تسقط ، اما تدهورها فقد يكون قاسياً جداً » (Discours, 2e partie) .

والاصلاح الذي حاوله شخصي محض ، وهو اصلاح فكره الخاص . لان مبادئ احد الافراد قد تكون ذات مستوى شامل . اما طريقة ديكارت فصحيحة لكل الازمان وفي جميع الاجواء . والعقل الفردي هو قاضي الحقيقة الاعلى وليس ذلك فقط بسبب ان وضوحها الشخصي هو الدليل الصادق عليها ولان الاقدمين كانوا يسلمون بها وانما يستطيع كل فرد ويجب عليه ان يجد وحده كل الحقيقة بصرف النظر عن التقليد والشهادة وبدون اية مساعدة كانت وان يضرب صفحاً كاملاً على كل ما استطاع الآخرون ان فكروا او يفكروا فيه .

ولقد طبق روسو واصحاب المذاهب الفلسفية الثورية هذا المبدأ في علم الاجتماع والسياسة ولماذا لا ؟ فقد ضربوا صفحاً كاملاً على كل الانظمة ليعيدوا تشييد الدولة من جديد بقوة العقل ... والمقصلة

وجعل ديكارت مبدأ الفردية العقلي هذا اشد خطورة بطريقته الرياضية (Mathématisme) ، اي انه زعم استنتاج كل امر بواسطته وانه لن يستخدم لتشييد البناء العلمي الا افكاراً واضحة جلية كالافكار الرياضية . واذا كانت ثمة اجواء لا يصلح فيها تطبيق هذه الطريقة فذلك هو جو الحياة ولا سيما الحياة الاجتماعية ، ولقد قيل ان روسو هو ابن الثورة والمذهب الفردي الحديث وجدّهما ديكارت الذي ظهر كتابه (Le Discours) سنة ١٦٣٧ .

باسكال (١٦٢٣–١٦٦٢) لا نستطيع ان نحصر بسهولة فكرة باسكال ونعبر عنها بايجاز اذ ان لفلسفته وجهين . ففي نطاق الطبيعة هو من الذين يعتقدون ان الوحي هو مبدأ المعارف وقد تبنى مذهب مونتاين (Montai ne) الشكوكي ومذهب جانسينيوس التشاؤمي . ومن رأيه اننا عاجزون عن معرفة الحقيقة وصنع الخير بدون الايمان والنعمة ومن قوله : في الواقع – ماذا نعرف عن الفلسفة الاجتماعية ؟ ان الانسان العامي يعتقد ان القانون عادل والسلطة مشروعة .

(Cf. Pensées, édit. Havet, V,2,7 ; VI, 40).

ولكن ما من امر عادل بذاته كما يقول العقل (III, 8, 13) . وليس عدلنا المزعوم الا قضية زي (VI, 6) . فهو متقلب بحسب الزمان والمكان : « ان

ارتفاع ثلاث درجات من القطب تقلب كل علم الحقوق رأساً على عقب ، وان خط عرض واحد يقرّر بشأن الحقيقة فللحقوق عهودها . ان دخول زحل من برج الاسد يطلعنا على اصل الجريمة الفلانية . . . وان حقيقة في جانب البيرنيه (Pyrénées) هي خطأ في جانبه الآخر (III, 8) . وفي سبيل احلال السلام فلنطع القوة . واذ عجزنا عن ان يكون العدل قوياً فكانت القوة العدل (VI, 8) . ان المنفعة هي التي توطد اركان المجتمع . و « لقد استخدمنا الشهوة كما كان بمقدورنا لنجعلها في خدمة المصلحة العامة » (V, 21) .

هذا هو الوجه الاول لفلسفة باسكال وهي على طريقة هوبس . واليك وجهها الثاني : « بما ان الله قد صنع السماوات والارض وهما لا تشعران بسعادة كيانهما فقد اراد ان يصنع مخلوقات لتعرفه وتؤلف جسماً من اعضاء مفكرين » (XXIV, 59) والاعضاء بينما تريد خير الجسم فانها تريد في الوقت نفسه خيرها (id. 60) . فعلينا اذاً ان نختار المصلحة الشاملة (XII, 33) و « لكي نجعل الاعضاء سعداء كان لا بدّ من ان تكون لهم ارادة وان يجعلوها تماشي الجسم » (XXIV, 6 ter)

ولقد بسطنا هنا بملامح واضحة صورة افضل المذاهب الاجتماعية . ولكن من نكد الطالع ان باسكال لم يعرف ميزة هذه الفلسفة العقلية ومع ذلك فقد كتب « ان القانون لم يهدم الطبيعة ولكنه علمها والنعمة لم تهدم القانون وانما جعلته قيد الممارسة » (id. 6) .

اما المسؤول عن هذه الشوايب فمبادئ جانسنيوس .

٦ ـ القرن الثامن عشر

في هذا القرن كان هيوم (١٧١١–١٧٧٦) (Hume) ، وكوندياك (١٧١٥–١٧٨٠) (Condillac) مع فلسفتها التجريبية الجديدة ؛ وهلفيتيوس (١٧١٥ — ١٧٧١) (Helvetius) وهولباك (١٧٢٣ — ١٧٨٩) (Holback) وكابانيس (١٧٥٧–١٨٠٨) (Cabanis)مع فلسفتهم المادية الجديدة؛وفولتير والانسكلوبيديين والفلسفة المزعومة «pseudo-philosophie» ولويس الخامس عشر واعتزال السلطة،

وخروج جانسنيوس (Jansénius) على الكنيسة: اعني ان الارض كانت ممهدة في ذلك العهد لنمو جميع بذور الضلال .

وقد كان روسو مكبر صوت المذهب الفردي الحديث (١٧١٢–١٧٧٨) اما علم الاجتماع الذي وضعه فمعروف . فلذلك ساكتفي بايراد بعض اقواله : لقد تكوّن الافراد بطبيعتهم تكويناً كاملاً قبل ان يعيشوا مجتمعين بيد ان المصادفة والاحداث الالية قد افضت بهم الى حياة الاجتماع حيث شرع البشر يفقدون صلاحهم الاصلي . وما عتمت حياتهم الاجتماعية حتى هدمت شيئاً فشيئاً الحرية والمساواة الطبيعيتين وجرّت وراءها جميع ضروب الرذائل . فلذلك يقضي الواجب باعادة تنظيم المجتمع على اسس كاسس الطبيعة اي ان يصان استقلالهم ومساواتهم ، فالذي يحتاج اليه الفرد هو ان يتحرر من الطغيان وان يصان من الظلم .

هذه هي الغاية التي كانت هدف مؤلفه « العقد الاجتماعي » : بالتخلي الشخصي عن الكل للجميع فكلّ يجعل الارادة العامة ارادته . والشعب هو وحده السلطان الشرعي ، وتنقطع الارادة المشتركة عن ان تكون ارادة عامة عندما لا يصبح هدفها مصلحة الجميع ضمن نطاق المساواة المطلقة . وحينئذ يستطيع كل فرد إمّا ان يسترد حريته وإمّا ان يرضى بالاستعباد ، امّا المجتمع السياسي فمجموعة متماسكة الاجزاء. قد اوجدها الافراد بحريتهم وحافظوا عليها، وهذا هو التماسك الذرّي الاجتماعي التام.

ومن الصعب ان نذهب الى ابعد من ذلك في هذا النحو الذي لا يعقبه الا الفوضى المحض ؛ ولقد حاولت الثورة الفرنسية ان تضع تعليم روسو موضع العمل به فهدمت اشياء كثيرة صالحة وغير صالحة وجرّدت خاصة الافراد من ملاجئهم حيال البلوتوقراطية (سلطة الاغنياء) وبذلك مهّدت الطريق امام شكل جديد لاستعباد عمال القرن العشرين.

وعقب ذلك اخذ مذهب الفردية يتدهور من اجواء الجدل النظري الى ارض الحياة العملية .

وشاطر روسو تفاؤله بالطبيعة ونقته بها الاقتصاديون الذين اطلقوا عليهم

اسم الفيزيقراطيين و«هم الذين يرون ان الارض وحدها هي موارد الثروة» اما القول «دع الامور تجري في اعنتها» فهو شعار المذهب الاقتصادي الحر الذي يعتبر مونتسكيو من اتباعه .

ولا مندوحة عن ان نضع كانت(١٧٢٤–١٨٠٤) (Kant) في عداد القائلين بمذهب الفردية لان الحقوق في نظره هي توازن الحريات الفردية التي اقرها القانون وصانتها الدولة . ومن اقواله ان غاية القانون حماية الشخص .

٧ ـ الفرد التاسع عشر

ان مفهومي المذهبين الفردية والاجتماعية ليصدم احدهما الآخر ضمن اطار الحياة الاقتصادية حيث يتفوق الثاني على الاول شيئاً فشيئاً ويتخذ شكل تجمعات تزداد في تعقدها وتسير في انحرافات خاطئة ولاسيما في الانحراف القائل بنضال الطبقات وبمذهب الاجتماعية في الدولة (Etatisme) .

ا – مذهب الفردية

يبدو المذهب الفردي في شكلين متقاربين هما : مذهب رأس المال الحر في فرنسة والمذهب الاقتصادي الحر في انكلترة . وبالاستطاعة تعليل المذهب الاول بعاملين اقتصاديين متبادلين : استخدام الآليات التي كان اتقانها يزداد يوماً فيوماً وحشد الصنائع اولاً في مؤسسات الصناعة ومن ثم في المعامل والمراكز الصناعية وتكديس الشركات لرؤوس الاموال وحشدها وارتفاع عدد العمال وازدياد شقة التباعد بين طبقتي المستخدِمين والمستخدَمين . وقد افضى السباق في الانتاج الرخيص الى دفع اجور متدنية لا تكفي العامل فكان الفقر وعدم الاستقرار والعمل الشاق .

ونتائج التقدم المادي افضت الى الاستبداد كما يؤخذ من التحقيقات الرسمية التي اوضحت اجراءات يندى لها الجبين .

وجاء في تصريح لوزير التجارة الانكليزي هوسكيسون (Huskisson) في مجلس العموم :« ان رجال صناعة الحرير في بلادنا يستخدمون الوف الاطفال في معاملهم ويجبرونهم على الشغل من الساعة الثالثة صباحاً الى العاشرة مساء

تحت رقابة مناظرين في ايديهم السياط ليضربوهم بها اذا ما توقف احدهم قليلاً عن العمل (Ami du Clergé, 30 mai 1948, p. 523) . ولقد أُشير الى مثل هذه الحوادث في فرنسة.

ولقد وُجد اقتصاديون استصوبوا هذا النظام كجان. ب. ساي (١٧٦٧–١٨٣٢) (J. B. Say) وشارل دونويه (١٧٨٦–١٨٦٢) (Charles Dunoyer) وفردريك باستيا (١٨٠١ – ١٨٥٠) (Frédéric Bastia) وكانوا يقولون ان توازن القوى الاقتصادية يستقر استقراراً « اوتوماتيكياً » . فمن الخطر التدخل بشأنها .

وبعد سنة ١٨٤٨ كان هناك اقتصاديون يقولون ان البؤس محتوم وهو من عمل العناية الالهية على شاكلة اثراء نخبة من الناس.

وها تحت نظري وريقة دعاية بقطع ١٣×٨ تبيّن نفسية بعض الاوساط « الحسنة التفكير » « bien pensants » ظهرت في ليل(Lille) ولا تاريخ لها وهي بلا ريب من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر واليك محتواها : في سبيل هداية العمال نراهم يعتدون اعتداداً كبيراً بمؤسسات المساعدات الاجتماعية ؛ اجل انها وسائل مفيدة ولكنها نافلة ليس الا وبالاستطاعة الاستغناء عنها تماماً . . . لانها ليست غير علاجات مسكنة . . . ان عظة قوية على الجحيم لاشد فعلاً في نفوس العمال المارقين لارجاعهم الى الكنيسة اكثر من جميع مؤسسات المساعدة الاقتصادية في العالم . اما البابا لاوون الثالث عشر فليس من هذا الرأي . وما هي ضروب الجدل النظرية التي رافقت الوز الانكليزي الخيف ؟ انها آراء اقتصادي المذهب الذي اطلق عليه اسم المذهب الاقتصادي المدرسي.

ويُقال ان ادام سميث (١٧٢٣–١٧٩٠) (Adam Smith) الذي كان صديقاً لهيوم هو الذي اسّس العلم الاقتصادي وعلّم ان المصالح الفردية لا بدّ لها من ان ينسجم بعضها مع بعض وفق نواميس محتومة على شاكلة نواميس القوى الطبيعية .

وحدّد جريمي بنتام (١٧٤٨–١٨٣٢) (Jérémie Bentham) الحقوق بقوله : انهـا قيام الائتلاف بين التحاسد ائتلافاً قد يتحقق احياناً بواسطة ضغط

الملك ، مما يحمل على الاعتقاد ان الاثرة «الانانية» هي اساس المجتمع. على حين ان ريكاردو (١٨٠٦–١٨٧٣) صاحب نظرية «القيمة» يقول بحرية التبادل ويرفض تدخل الدولة في الشؤون الداخلية. اما ستوارت مل (١٨٠٦–١٨٧٣) (Stuart Mill) فمعروف بانه عالم نفساني اكثر منه اقتصادي ومع ذلك فانه يفهم الانسان والعالم مفهوماً مستنداً الى النظرية الذرية.

ب – تصاعد المذاهب الاجتماعية

لا تقل اهمية الوقائع في هذا الشأن عن التعاليم النظرية وربما كانت هذه الوقائع هي التي ادت الى وضع النظريات اكثر مما تنبثق منها ولذلك سنبدأ بالقاء نظرة عليها.

ففي اذار سنة ١٧٩١ الغى المجلس التأسيسي جمعيات التعاون بعد ان نفرت الشعب منها لسوء تنظيمها وبدلاً من ان يعمد الى انشاء جمعية غيرها لتحل محلها فقد حظر قيام اية منظمة عمال كانت وذلك بينما كان تقدم الآليات يسير سيراً مطرداً الى الامام ليفضي الى تمركز رؤوس الاموال.

وجاءت نتيجة ثورة العمال سنة ١٨٤٨ اخفاقاً لهم كما ان الثورات الاخرى التي لم يقدر لها النجاح افضت الى تزييد خطورة الاكراه والبؤس، وقد ظل قيام الجمعيات ممنوعاً وان كانت مسالمة الى سنة ١٨٦٤ ، ومنذ ذلك العهد اخذت فكرة انشاء الجمعيات تتقدم تقدماً مستمراً ، فقد اعترف القانون الصادر سنة ١٨٨٤ بالنقابات التي كون منها اندماج مؤسسات العمل واتحاد نقابات العمال العام « C. G. T. » الذى انتصر معه سنة ١٩٠٦ مبدأ نزاع الطبقات والعمل المباشر للوصول الى تحرر الجمعيات وانشق عن هذا الاتحاد فرع كان منه المذهب الاجتماعي البرلماني.

ومن وجهة التعاليم النظرية فكانت ثمة ردة الفعل على روسو والثورة الفرنسية، بلمع في هذا الميدان جوزف دي مستر (١٧٦٠– ١٨٢١) (Joseph de Maistre) القائل : ان المجتمع هو جهاز عضوي طبيعي ينمو وفق نواميس كالنواميس الحيوية «بيولوجية» وتخيل تخيلاً غامضاً قيام جامعة امم.

سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ـ١٨٢٥)

غالباً ما كانوا يطلقون عليه لقب الوهمي لان المبادئ التي اعلنها كانت تقوم على طرفي نقيض مع ما كان مألوفاً عملياً في عصره ومع ذلك فقد كان لافكاره تأثير عظيم . ولقد اعلن افضلية العمل وان اعترف بضرورة وجود فئات فضلى وطالب بتنظيم معقول للملكية .

كونت Comte (١٧٩٨ـ١٨٥٧)

لقد اخذ كونت عن أستاذه سان سيمون الذي تتلمذ عليه حتى سنة ١٨٢٤ وعن جوزف دي مستر (Joseph de Maistre) الـذي كان يضمر له احتراماً شديداً وهو اي كونت من اقوى مفكري عصره . اما فلسفته لما وراء الطبيعة التي كانت موضوع سخرية (فلسفة ما وراء الطبيعة حسب عقلية محيطه) فاضرت بشهرته ، واسس على مذهبه الانكاري الوضعي الذي يجحد بكل شيء علم اجتماع مرموقاً حاملاً على الخطأ ليلتقي – تاركاً مذهب فردية روسو وديكارت والاصلاح البروتستانتي – بتيار فلسفة القرون الوسطى والقديمة الاجتماعي :وفرض دائماً بتناقضات موقتة ما اعلنه انه غير ممكنة معرفته او تستحيل معرفتـه : الغائية وموضوعية المثل الاسمى وقيمة العقل . وقال ان كل شيء يخضع لناموس النظام والتقدم المزدوج من المادة الى الحياة الى الفكر والى المجتمع،والفرد الذي هو إضمامة قوى ونزعات متسلسلة المراتب لا يتمّ الّا في المجتمع :المنظمة العضوية الصحيحة.اما غاية الفرد فتنطبق على غاية المجتمع لانها اتباع النزعات الاجتماعية . والواجب قبل الحق . وما الحقوق الّا محصّل الواجبات المتبادلة .

هذا هو التوازن الاجتماعي في عرف كونت (Comte) ، الذي من سوء الحظ يكتمل بقوى العناصر المادية المنسقة في عملهـا ويوجزه قانون الحالات الثلاث الشهير : اللاهوتية والمتافيزيقية والموضوعية .

برودون Proudhon (١٨٠٩ـ١٨٦٥)

عرف برودون بكلمته الشهيرة « الملكية هي السرقة » . اما تعليمه الشتيت العناصر فقد استمده من المذاهب الفردية والاجتماعية وقد كتب حاملاً على

الشيوعية مؤلفه « فلسفة البؤس » وردّ عليه كارل ماركس بان وضع كتاباً سماه « بؤس الفلسفة » .

كارل ماركس (Karl Marx) (١٨١٨ـ١٨٨٣)

لا يقاس تأثير كارل ماركس بقيمة افكاره. اما تعليمه الذي جاء به فقد وضعه تحت تأثير بؤس محيط العمال الواقعي وانعشته صوفية جذابة : فهو حياة. وتعليم ماركس هو شعار الاراء الاجتماعية وانما في معنى خاص اي المطالبة بالتساوي والحصول على المساواة بين الافراد بوسائل العنف .

ولا يخلو تحليله للاقتصاد الراسمالي ولاسيما لسنة ١٨٥٠ من بعض الحقيقة. اما اليوم وعلى ضوء الوقائع الاخيرة فقد أنكرت عليه نقاط عديدة ، ولقد اقترح كعلاج نضال الطبقات وتحطيم المجتمع الراسمالي ودكه رأساً على عقب . اما القسم الثاني من منهجه فما برح مبهماً وغير محدود .

ولا ريب في ان نبذه للعامل الروحي لن يخوّله الاتيان بشيء وطيد ولن تستطيع الاشتراكية الحياة على الاساس المادية .

وصفوة القول ان الماركسية لم تقدّم الفلسفة الاجتماعية وجلّ ما في الامر انها نشطت التطور الاجتماعي واسرعت به .

وقبل الانتقال الى الكلام على المذهب الاجتماعي في الدولة (Étatisme) ، لا بد من الاشارة الى مذهب وسط بين تياريّ الاجتماعية والفردية: واريد به علم الاخلاق للرجل المتفوّق او للفرديات القوية فرينان (١٨٢٣ — ١٨٩٣) (Renan) كان الرجل المتفوق عقلياً ونيتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) الرجل المتفوق عملياً . ولم ينشئ هذان الرجلان مذهباً بالمعنى الصحيح.

اجل ان كثيراً من البشر يكتشفون في انفسهم دعوتهم للعبقرية. والمثل الذي ضربه هذان الرجلان ليس فيه شيء من الخلابة الجذابة ومع ذلك فقد سمّم مذهب رينان عدداً من الفرنسيين كما سمّم مذهب نيتشه عدداً اكبر من الالمان.

ج — مذهب الاجتماع الالماني في الدولة

هيجل (Hegel) (١٧٧٠—١٨٣١) ، اصدر هيجل كتابه «فلسفة الحقوق»

سنة ١٨٢١ ، وملخص ما جاء فيه : بما ان الكائن هو الروح التي تحققت فكذلك الحقوق هي الارادة الحرة التي قيد التحقق ، والحقوق نوعان: الحقوق اليونانية وهي كجهاز عضوي والحقوق الغربية المؤلفة كتركيب الذرات. ولقد تفوّق مع ديكارت وكنت مذهب الاجتماعية الفردية الذي يجب التاؤه ؟ اما الفكر فيصل شيئاً فشيئاً الى الوجدان والحرية اولاً بواسطة العيلة والإضمامة وثانياً بواسطة الدولة وما الدولة الا جهاز عضوي ذراتها الافراد الذين لا قيمة لهم الا اذا كانوا مندمجين و« منظّمين » وهي تستخدم ضروب الاثرة «الانانيات» الفردية لغايتها . فسلامتها قبل كلّ امر آخر . اما الابطال والديكتاتوريون الذين يجزرون سير الروح فهم اركان سلطانها . وعلى الفرد ان يكون احد اعضائها وان يحيا حياة عامة ، فالحياة الخاصة ضرر والارادة الفردية اذا كانت معقولة كانت شبيهة بإرادتها .

ان التاريخ هو الروح السائرة في طريقها والدولة الخاصة هي فترة تطور الروح ، واليوم يمثل العنصر الجرماني هذه الفترة والنصر مقطع الحق ، ويمثل هذه الفكرة كل التمثيل في وقت ما من الزمن ، الشعب الذي يحرز الغلبة .

واننا لنرى الشخص في هذا الجهاز العضوي يختفي كل الاختفاء .

ولقد عاد اثر هيجل مسيطراً على عقول الكثيرين بعد ان غاب مدة . ولا يغربُ عنا ما احرزه من نجاح .

د – علم الاجتماع الفرنسي

ليس ديركهايم (١٨٥٨–١٩١٧) (Durkheim) مؤسس مذهب علم الاجتماع الفرنسي الّا دخيلاً قليل الثقافة عرف كيف يستثمر افكار غيره التي اضاف اليها ضروب ضلاله الشخصية : كانكاره المثل الاسمى وجحوده بكل علم له قواعده الراهنة ونفيه الغائية :

ولقد اتحفنا ديركهايم مع ذلك ببعض الضوابط حول نقطتين : اولاً ماهية الاجتماعي وكونه وواقعه وكانت ايضاحاته في هذا الباب لا تقوم على جمع حقائق واقعية فردية ولكنها من القضايا الخاصة به . وثانياً توزيع العمل والتعاون فيه تعاوناً عضوياً وما ينجم عن ذلك من نتائج .

ه - استيقاظ الفردية مجددًا

اضفى الاستاذ ديجي (Duguit)، المعدود من اشهر الحقوقيين الفرنسيين شكلًا على الفردية يبدو جديدًا في ظاهره. ومن اقواله : المجتمع هو وجهة نظر عقلية وليس شخصًا معنويًا ولا موضوعًا حقوقيًا. وما من شيء مرئي وما من امر حقيقي تستطاع ملاحظته الا العمل الفردي.

(Cf. « son traité du Droit constitutionnel », 1931, t. 1. pp. 59. 130. 252. 329).

ان الحقوق الفاعلية اي سلطة ارادة على ارادة اخرى ليست شيئًا بالاستطاعة رؤيته فهي وهم اثرته مخيلة الانسان وبقايا كائنات اعطاها اللاهوت المدرسي جوهرًا متميزًا عن غيره (l. c. p. 253) وعلى العكس منها الحقوق الموضوعية لانها واقع، فما هي الّا قاعدة السلوك التي يفضي انتهاكها الى ايجاد دفاع قابل للتنظيم (id. p. 26, sq.) . انها للقاعدة التي لا تشتمل على اية اوامر كانت ولا على اي واجب، بالمعنى المتافيزيقي؛ فهي امر غير حقيقي كالوجدان والنفس ولا تقوم قوتها الّا على كونها «قاعدة» سنها سير الاكراه الاجتماعي وضمنها (id. p. 71) .

وان الدولة ايضاً هي واقع وسلطتها هي القوة العظمى المسيطرة على ضعف الضعفاء. (id. p. 50) . هـذه هي الفلسفة الوضعية التي ظلت تتوالى اقيستها الذهنية دراكًا الى النهاية حتى بلغ بها الحد الى انكار كل امر.

ولذلك يشعر تلاميذ ديجي (Duguit) كالاستاذ ريبرت (Ripert) بالحاجة الى اكمال هذه النظرية التي يقولون فيها - انها نظرية علمية - الى التوسل بالايمان

.(Cf. Annales de la Faculté d'Aix, 1918, p. 38 et « La règle morale dans les obligations civiles, article et ouvrage de Ripert »)

ولكن وفاقًا لايّ منطق ؟

و - موراس (Maurras)

هو النقطة التي التقت فيها جميع روافد الضلال فقد اقتبس عن كونت (Comte) فلسفته الوضعية واذ كان منطقيًا اكثر منه لم يخرج منها واقتبس عن رينان (Renan) مروقه وطبعه بطابع كره وبغض للمسيح العبراني وانه لطابع لم يكن

لبنان مثله واقتبس عن الالمان معظم نظرياتهم في علم الاجتماع وعن هيجل—وان كان يحتقر علمه ما وراء الطبيعة -- نظرية الاجتماعية في الدولة ، وعن نيتشه تهكمه وكرهه الخاص للقواعد الاخلاقية الانجيلية وفضيلة المحبة،معتقد المسيحية الاساسي . وليست الهتلرية والموراسية الّا خدنين لان تعليمها واحد مع فارق هو تبديل الالفاظ التي اقتضاها كلٌّ منها : فكلاهما يقوم الدين عندهما على وحدة الدم وكره الاجنبي وانكار العهد القديم والمسيحية السامية ، ويجزم بان المسيحية الرومانية المتأخرة تصدر عن مأتى وطني ووثني .

وفي زعمه انه اعلنها حرباً على الفردية فاستعار منها ضلالها المزدوج الرئيسي وهما المادية والاثرة « الانانية » .

ولم يتفق ان انكر احدٌ الاخاء الانساني الذي تراءى لمتتقي مذهب زينون والقت عليه المسيحية نورًا وهاجًا انكارًا جازمًا كموراس .

وليس مذهبه بؤرة شوايب فقط لا بد لنا من ان نرثي معه فلسفته وانما هو المفاسد بعينها . فموراس لم ينكر الخالق فحسب بل انكر العقل وناقض الحقيقة في نقاط عدة اساسية من علم الاجتماع . حتى كان لا بدَّ من تدخل حكمة روما لتمد الينا يد المساعدة في جهلنا .

ز – الوجودية

طالما لا تبرح سوق الوجودية رائجة لا بد لنا من ان نلقي عليها نظرة :

لقد زعم سارتر (Sartre) انه توسّط بين نظريتين الاولى نظرية البورجوازيين الذرّية التي تضحي المجتمع في سبيل الفرد والثانية نظرية الاجتماعية المركسية التي تضحي الفرد في سبيل المجتمع .

(Cf. « Présentation des Temps modernes » reproduite par la Presse de France à Beyrouth, numéros 48-49, le 16 Novembre 1945, pp. 46-51).

ونظرية سارتر « الموحّدة » بشأن تركيب الانسان والمجتمع يعتورها الغموض اذ ما من شيء فيا واضح غير الوجودي الذي اسرته انانيته ولا يهمه امر الّا ان يُنقذ حريته التي لا تنزع الى شيء . اما وجود غيره فيبدو له « جحيماً » وليست هذه النظرية الّا الفردية الباعثة الفوضى. (له صلة)

الاجرة العدل [1]

بقلم الاب بطرس مازاس اليسوعي

ابائي المحترمين ، سيداتي ، سادتي

لقد استمعتم الى السيد تلباك يبسط «بحث نظرية الاجر الجديدة» متصدياً لعرض الوجهة النظرية او اذا شئتم القول الى بسط تفسير علمي ، اما حديثنا اليوم فكفى بعنوانه « الاجرة العدل » ليشير صراحة الى اتجاهنا وجهة مخالفة له لان القضية لا تقوم على « عرض ما هو موجود » بقدر ما تقوم على « بحث ما يجب ان يكون موجوداً » .

ويدور بخلدنا ان الفرق القائم بين التعليم والنظرية هو ان الثانية تضع قياساً لامور واقعة على حين ان التعليم يرشدنا الى طريق ننتهجها . ولئن تحدثنا عن الاجرة العدل فلا مندوحة لنا عن الاستناد الى فكرة « العدل » وبعد ان نكون خرجنا عن دائرة الشروح العلمية انتقلنا حتماً الى الناحية التعليمية .

ولا بدّ لنا من مثل هذا المقام من ان نلتقي بادئ بدء بالمذهب الاقتصادي الحر القديم الذي يعلمنا سواء أكان ذلك من حيث السعر ام من حيث الاجرة انه ما من سعر عدل ولا من اجرة عدل الّا اسعار السوق فقط التي يقررها قانون العرض والطلب فالاجرة العدل يجب ان لا نتكلم فيها فهي التي يعينها تقلب هذا القانون نفسه لتنطبق عادة على مستلزمات العدل — بيد اننا لم نرَ شيئاً يوضح شروطها وينطبق على مثلنا الاعلى للعدل .

وثمة تعاليم اخرى تبتّ بتّاً جازماً بشأن الاجرة : فمنها ما يقول : الاجرة تتعلق ضرورة بالجزء الذي يستطيع ويريد اصحاب رؤوس الاموال تخصيصه بالعمال فما علينا والحالة هذه الا ان نقسم هذه القيمة على عدد من يريدون استخدامهم . ومنها ما يكتفي بجعل الاجرة محدودة جبرياً بمستوى لا يزيد الا

١) نص المحاضرة التي القاها الاب مازاس في سلسلة المحاضرات الدينية التابعة لمعهد الدروس الشرقية .

قليلاً عن احتياجات العامل الحيوية ، وجلّ ما استطاعوا ان يأتوا به هو تأرجحهم بعض التأرجح حول خطة مثلى اطلقوا عليها اسم « الحد الادنى الحيوي » .

وهذان التفسيران المزعومان علميين لا يسعيان الى ايجاد الاجرة العدل وليسا الا تفسيرين ينافيان كل المنافاة الروح الانسانية وان زعما ان الاجرة مرهونة بقوانين اقتصادية لا تتبدل ولا دخل لاي اعتبار اخلاقي كان في تحديدها اذ انها رهن تقلب سوق العرض والطلب البعيدين عن متناول اشراف الوجدان الانساني عليهما .

وبعد ان نقد السيد تلباك في محاضرته السابقة نظرية لاسال (La loi d'airain) بشأن ما يتطلبه الانتاج وبشأن تخفيض الاجور الى ادنى حد ضروري ممكن لمعيشة العامل وذويه لن نرانا بحاجة الى العودة اليها .

وحرصاً على تجنيب النفس الانتقاد اذا قلنا ان الاجرة المرتضى بها هي عدل لا بد لنا من ان نردّد بصراحة ان العامل الذي يرتضي مرغماً باجرة لا تكفيه وتكفي ذويه هو غير حرّ حقيقةً . ان المسافر المتأخر الذي يقدّم بطواعية محفظة نقوده للسلابين فلكي يتخلص من شر اعظم . فهل هو حرّ او هل لديه هذه الحرية الادبية التي يصبو اليها كل انسان ؟ وكذلك العامل الذي يرتضي بارادته باجرة لا تسد حاجاته وحاجات اسرته فهو ليس حرًّا ولم يكن ارتضاؤه بها الّا لينجو من شر اعظم ، وليست اجرته الا ظلماً وان رضي بها . ولذلك كان علينا ان نجد مقياساً آخر لتعيين الاجرة العدل .

٥

ولقد افضى بنا الامر لنرى النفس امام التعليم الاجتماعي الكاثوليكي الذي لا نتردّد عن مباشرة بسطه الان . ينجم عن فكرة هذا التعليم ان الحتم في قضية تحديد الاجور ليس امرًا مطلقاً فهناك قوانين ادبية في هذا الباب من مصلحة المتعاقدين الشخصية تنظيمها وفق قاعدة سامية لان مصلحتهم تخضع لاشراف الارادة الحرة عليها .

ومبادئ التعليم الاجتماعي الكاثوليكي تشتمل عليها البراءات البابوية التي يعرفها جميع الناس وهي البراءة المدعوة (Rerum Novarum) التي اصدرها البابا لاون الثالث عشر سنة ١٨٩١ وبراءة بيوس الحادي عشر المدعوة (Quadragesimo anno)

سنة ١٩٣١ . والبراءة المدعوة (Casti connubii) ١٩٣٠ ، والبراءة (Divini Redemptoris) ١٩٣٧ تشتملان ايضاً على حاول هذه المعضلة والتفكير بها .

ه

ومما قاله البابا لاون الثالث عشر : « في سبيل تحديد الاجرة العدل عدة وجهات نظر لا بدّ من اخذها بعين الاعتبار » . واوضح الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر الذي اتخذ الفكرة نفسها قائلاً « من المستحيل ان نقدّر العمل بقيمته العدل وندفع عنه اجرة مضبوطة اذا اهملنا ان نأخذ بعين الاعتبار شكله الفردي والاجتماعي معاً » . فما هي اذاً النقاط التي لا بد من اخذها بعين الاعتبار ؟ انها ثلاث : اولاً تأمين حياة العامل مع عيلته . ثانياً اوضاع المصنع وماهية الفوائد التي يستطيع ان يفوز بها صاحبه . ثالثاً مستلزمات المصلحة العامة . فاذا اهمل اخذ هذه النقاط الثلاث بعين الاعتبار لما كان هناك من اجرة عدل .

ولن نسهب هذا المساء في النقطة الاولى لانها ستكون موضوع بحثنا يوم السبت القادم وقد جاء في البراءة (Quadragesimo anno) « من الواجب أن ندفع للعامل اجرة تمكنه من تأمين حياته وحياة عيلته » . وما من سبيل الا ان نعبّر بكل سهولة المطالبة باجرة حيوية للعامل التي لا يستطيع احد على الشك بصحة ذلك لان العمل يقضي طبعاً الى استنفاد قوة حيوية . فالانتاج المتأتي عن العمل عليه ان يوفّر للعامل سبيلاً لاسترداد قواه وهذا اقل ما نستطيع ان نعطيه اياه . والعامل الذي يشتغل وجدانياً وبدون انقطاع طول ثمان ساعات ليتخلى عن ثمرة اتعابه ينبغي له ان يرى في اجرته ما يسدّ حاجاته الحيوية ويتناسب مع كرامته الانسانية . ولا يحدّد سعر الاشياء العدل ويفصل فيها الا التخمين العام . وهذا هو الحد الادنى الحيوي للاجور كي تكون عدلاً . ولا يقف الامر عند هذا الحد فقط وانما ينبغي للعامل الذي يتناول اجرة ان تكون كافية لسد حاجات زوجته واولاده . وفي المحاضرة الثانية سنتحدث عن هذه الامور .

ه

لا تتوقف الاجرة العدل على حاجات العامل وحاجات اسرته فقط ولكنها

تتعلق في الدرجة الثانية بأوضاع المصنع . ولا بد لنا من ان نلفت النظر مع البابا بيوس الحادي عشر الى ان مطالب العمال حدُّها مرهون بحياة المصنع وازدهاره لنشير بعدئذٍ الى ما هو من الطبيعي ان تؤمنه للعامل في حالة الازدهار كي يكون بالمستطاع اعتبار اجرته كمدل .

* * *

وجاء في البراءة (Quadragesimo anno) بشأن تحديد الاجور انه «لا بد من الاخذ بعين الاعتبار حاجات المصنع وحاجات من يضطلعون باعبائه ومن الظلم ان نطلب من هؤلاء اجوراً مفرطة الارتفاع لا يقدرون على تحملها من دون ان يتعرضوا الى الدمار الذي يؤدي بالعمال معهم الى الكارثة» .

وهذا الحل يفرض طبعاً ان ادارة المصنع رشيدة ولذلك اردف نص البراءة يقول: «اذا حقق المصنع ارباحاً قليلة بسبب تهامل صاحبه وتكاسله وعدم اهتمامه اهتماماً كافياً بتقدمه الاقتصادي والفني فلا يستطيع ان يتخذ من هذه الظروف سبباً مشروعاً لتخفيض اجرة العمال» .

واذا فرض ان اسباباً لا تتصل اتّما اتصالٍ بارادة صاحب المصنع اوجبت عليه ان لا يدفع اجرة عدلًا لعماله فما هو الحلّ ؟

اذا اضطر صاحب العمل الى امر من اثنين : اما ان يقفل مصنعه ويسرّح عماله واما ان يواظب على استخدامهم باجور ادنى مما يتطلبه العدل الاجتماعي فباستطاعته ان يعرض على معاونيه هذا الامر وهؤلاء بمقدورهم ان يقبلوا لوقت ما الاجور المخفضة تفادياً من البطالة وتخلصاً من خطر اعظم . ومن البديهي ان صاحب رأس المال عليه ان يضحي، والحالة هذه، بمصلحة رأس ماله قبل اقدامه على تخفيض الاجور الى اقل مما يقتضيه العدل الاجتماعي عادة لان حقّ العامل في اجره قبل حقه في ربح رأس المال فباستطاعته ان يشتغل ايضاً وان لم يؤمن له راس ماله ما يفتقر اليه ليعيش فان العامل الذي حرم اجرته لا يبقى لديه ذريعة يؤمن بها حياته .

واذا ما تعرّضت البراءة الى هذه الحالة الشاذة التي لا تقوى على الدوام فقد قال الحبر الاعظم : «على العمال كما على ارباب الاعمال ان يبذلوا مجهوداتهم

ويوجهوا ابصارهم باتحاد تام الى الظفر بكل الصعوبات والتغلب على كل العقبات. وعلى السلطات العامة ان توفّر لهم مساعدة السياسة الرشيدة في سبيل الغاية الناجمة.

واذا لم يقدر لنا النجاح في تلافي الازمة املنا ان نعرف فيما لو كان من واجبنا المحافظة على المصنع، واذا كان علينا من ناحية اخرى تأمين اليد العاملة. ففي مثل هذه السانحة الشديدة الخطر طبعاً من الضروري ان يسود الاتحاد الوثيق والتفاهم القلبي المسيحي بين ارباب العمل ومستخدميهم ليعربوا عن ذلك بمجهودات جديدة. » (Quadragesimo anno, n° 80)

واحياناً يؤدي تصلب العمال في عنادهم الى اخفاق مشروعات استئناف التنظيم التي ربما كان من نتائجها تبديل العسر باليسر بعد انقضاء وقت الازمة.

ويأبى الذين يستخدمون العمال احياناً ان يخففوا من آلامهم التي يؤدي اليها تسريح جزئي منهم بان يتخذوا تدابير خصوصية او انهم ينبذون اقتراحات اتفاق مع مصانع اخرى شبيهة بها مع ان مثل هذا الاتفاق قد يكون الوسيلة الوحيدة للابقاء على حياة المصانع.

***

ولقد نظرنا في الفرض الذي لا يستطيع معه المصنع ان يعطي العمال موقتاً ما يسميه « التخمين العام الذي يقوم به رجال احرار ذوو كفاءة واستقامة » الاجرة العدل: واعني بها الاجرة التي تسد جميع حاجات العامل وعلى كل ليست هذه الاجرة قاعدة عامة. فلذلك علينا ان نبحث الآن عما ستكونه الاجرة العدل فيما لو لاقت اعمال المصنع التجارية رواجاً وعما اذا كان بقدور العامل ان يصبح له حق في نصيب من الارباح وذلك اذا كان المصنع قد اخذ سلفاً الاجور المناسبة.

وفي مثل هذا المقام لا بد لنا من معرفة فكرة الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر بشأن الاجور في براءته (Quadragesimo anno). اجل ان الطريقة القائمة على اعطاء العامل اجرة اي مكافأة اكيدة مباشرة محدودة سلفاً تجعله في مأمن من تقلب الحدثان هي اجرة عدل بذاتها وخيرة للعامل اما الحبر الاعظم فينصح بان « يعدل عقد العمل بادخال بعض بنود في صلبه مستمدة من عقد الشركة ». وهذا ما بدأوا عمله باشكال متفرقة — ولقد اردف يقول: ان هذا الامر

لم يكن بدون فائدة محسوسة للعمال واصحاب رؤوس الاموال ، فالاولون مع المستخدمين يرون انفسهم مدعوين للاشتراك نوعاً في ملكية المصنع وادارتـه وارباحه التي يجنيها » .

ولنعتبر بالحكمة التي دلت بها البراءة على هذا التوجيه اذ اوضحت ايضاحاً جلياً انه ليس من مصلحة العامل ان يكون شريك صاحب العمل في معنى الكلمة الحقوقي فقط . وحيال وضع العمال وذوي رؤوس الاموال الصعب في يومنا الراهن وفي سبيل تأمين اتحادهم اوعزت البراءة فقط بان توتى كل محاولة من شأنها ان تقرّب وتوحّد الاشخاص والفوائد المتقابلة خاصة بما يخوّل العمال والمستخدمين أن يشتركوا في الارباح .

وتنطبق هذه النظرة الانسانية على مبادئ المدرسة الاجتماعية الكاثوليكية العامة وذلك فيما يتعلق بشأن عقد العمل وهي لا تعتبر الاجور بمثابة اكراء العمل لقاء اجرة معيّنة وانما تشركها بطبيعة الشركة القائمة بين الافراد الذين يستفيدون جميعهم من ارباح العمل العام كلٌّ بحسب منزلته منه .

ولا مندوحة لنا عن ان نعود الآن الى تبيان الوسائل المختلفة التي تخوّلها لتحقيق هذا المثل الاسمى : « ان يُعدّل عقد (مقاولة) الاجرة ببنود مستمدة من عقد الشركة » .

ومما يهمنا من بين جميع الوسائل التقليدية في هذا الباب وسيلتان فقط : اولاً الاشتراك في الارباح وذلك بان ينال العامل في نهاية السنة عن طريق اجرته نصيباً من الارباح . ثانياً المساهمة العمالية اعني اعطاء العمال اسهماً في العمل تبعاً لطرق مختلفة . وانكم تتأكدون بوضوح ان في استخدام احدى هاتين الوسيلتين تحرّر طريقة اجرة العامل . وسوف نتصدى لذكر بعض هذه الاساليب الحديثة لتوزيع الارباح .

***

يقوم الاشتراك في الارباح ، كما تعلمون ، على ان يضاف الى الاجرة — التي تكوّن مكافأة العامل الرئيسية وهي مكافأة محدودة مضمونة — زيادة مقتطعة من الارباح وذلك متى كانت هذه تفوق نوعاً الحد الادنى . وكان احد الصناعيين البلجيكيين الذي جعل من نفسه داعية لهذه الطريقة يقول : ثمة ثلاثة عناصر لا بدّ

من التمييز بينها في المصنع : رأس المال ، والعقل المنظّم او الادارة والعمل . وهذه العوامل الثلاثة في الاز هار لا مندوحة عن مكافأتها بادئ بدء . فللعامل الاجرة وللعمال المثقفين المرتبات والمعاشات ولصاحب رأس المال الفائدة الطبيعية لما قدمه من قرض تزاد عليه نسبة مئوية لتغطية ما يتعرّض له من خسائر .

واذا ما وقعت هذه الاجور لكل منهم وعندما تحسم النفقات السنوية فاذا تبقى هناك رصيد من الارباح فلن يذهب الى جيوب اصحاب رؤوس الاموال وحدهم وانما يقتسمه هؤلاء مع الادارة والعمال الآخرين .

اما النسبة المئوية التي تصيب كلاً منهم فمن الواجب ان تقرّر بعناية — ولا يزال الكلام هنا للصناعي البلجيكي ذاته — ومما قاله ايضاً :« من الصناعات ما يتأتى ربحها عن مهارة عمل رئيسها خاصة وعن تنظيمه (كمصنع المنتجات الكيماوية مثلاً) ومنها ما يكون ربحها ناجماً عن مهارة العامل الذي هو عنصر رئيسي فيها (كبعض الصناعات الفنية مثلاً كصناعة خشب الابنوس التي يعود الدور الرئيسي فيها الى اليد العاملة)، فمن الواجب ان تمنح صاحب العمل العقلي مركزاً ممتازاً كالمخترع او الرئيس الذي يعدّ محور المصنع وروحه » .

وختم هذا الصناعي كلامه بقوله : « نريد مع احتفاظنا بنصيب مشروع لرأس المال — الاعتراف بقيمة العمل وان نخصص له مركزاً في وليمة نهاية السنة» . (P. Dessart)

ومن الوجهة النظرية ان طريقة التوزيع هذه لمشروعة وبوسعها اصلاح في الاجرة المحدودة من جمود ونقصان ، فاذا ما اشترك العامل ورب المصنع في اقتسام الارباح (ويوصف المأجور انه في مأمن من الخسارة دائماً) فعليها والحالة هذه ان يسهرا فقط على ان ينطبق اقتسام الارباح على ما اتاه كل واحد وذلك بانصاف على قدر المستطاع .

ومن الوجهة العملية ان الاشتراك بالارباح يصطدم بصعوبات خطيرة . فمن الوجهة النفسانية ، ربما اعتبر — وذلك خطأ — بمثابة اكرامية من صاحب العمل لعماله، على حين ان هؤلاء يسعون سعياً حثيثاً للتخلص من سخاء ارباب الاعمال ليعالجوا شؤونهم على قاعدة العدل الاجتماعي . او ربما اثارت طريقة الاقتسام من ناحية اخرى مخاصمات على مبلغ الارباح . فما ينبغي لنا ان نفهمه بالربح الصافي وما هو

الجزء الموافق منها الاحتفاظ به لاستهلاك الديون والاحتياط وتوسيع العمل وبشأن ما يجب ان نخصصه منها لدفع الحصص . وفضلاً عن هذه المشادات ربما ادى ايضاً الى اختلاف بشأن تصفية ميزانية الارباح وادارة العمل والنصيب الذي يستحقه كل عامل من عوامل الانتاج .

ولئن كانت هذه الصعوبات غير مستعصية الحلّ فانها تجعل انتهاج هذه الطريقة صعبة العمل بوجه عام ، وصفوة القول ان المشاركة في الارباح لا توفر لنا الّا نطاقاً محدوداً ضيقاً كل الضيق : فلا يصح التفكير فيها في اثناء المدة التي يُنشأ فيها المصنع وقد تكون هذه المدة طويلة الامد كثيراً ولا في السنين العجاف ولا في خلال الاعمال التي لا تؤدي ارباحها الى تحويلها اجتناء الارباح لدفع نصيب رأس مالها وتغطية ما تتطلبه منشآتها من استهلاكات وايجاد الاموال الاحتياطية الضرورية : لان معارضة العمال في تخصيص هذه الاستهلاكات والاموال الاحتياطية من شأنها ان تسمم العلاقات بين الادارة واليد العاملة بدلاً من ان تحسنها حتى يصبح من الحكمة غالباً ان يُعطى العمال منحة شهر اضافي — الشهر الثالث عشر في نهاية السنة — تفادياً من الدخول في مناقشات لا نهاية لها ولا تفضي الّا الى الوصول الى نتيجة عملية واحدة . ولذلك يجب ان تؤلف الاجرة الحقيقية — المكافأة المضمونة الاكيدة المحددة سلفاً — كل دخل العامل تقريباً لانه لا يستطيع ان ينتظر السنين ذات الارباح فهو حريص قبل اي امر آخر على ان يكون وضعه مستقراً ثابتاً وفي الخلاصة ان الارباح المنويّ توزيعها لن تكون في مجموعها الا ذات اهمية ضئيلة بالنسبة الى عدد الشركاء .

ولئن اجملنا القول حول هذه النقطة فهو ان الاشتراك في الارباح اذا اعتبرناه بمثابة عمل عدل اجتماعي وليس كآتي سخاء من شأنه ان يسفر احياناً عن ان يستخدم استخداماً مفيداً بسبب ما قد يكون له من تأثير ادبي . وذلك على رغم ما يجرّ اليه من صعوبات اذ بفضل طريقة التوزيع هذه يستشعر العامل ان شخصيته باتت اشد انسانية وانه معنيّ بالعمل كأنه عمله الخاص به وانه اصبح اقرب الى صاحب المصنع المشترك معه بعض الاشتراك بسبب احد بنود عقده (مقاولته) الذي ادخل فيها .

ولئن ظل عقد العامل عقد عمل فقط لانه لا يساهم ابداً فيما يتعرض له المصنع من خسائر فانه يجعله يستشعر ان وضعه اصبح اميل الى وضع انسان وانه قد ابتعد شيئاً فشيئاً عن وضع الآلة !

ج

ولقد سبق لنا القول « بتعديل عقد الاجرة بادخال بند مستمد من بنود عقد الشركة » وثمة ذريعة اخرى وهي ان تؤمن للعامل نصيباً في العمل عن طريق اسهم العمل . وفي مثل هذه الحالة لا يقوم الامر على اشراك العمال في الخسائر الممكن حدوثها ولكن بالارباح المحتمل تحقيقها فقط . وتقوم هذه الطريقة على اعطاء العمال اسهماً خاصة يقال لها اسهم العمل : كاشتراكهم في الارباح او كمكافأة على القدمية او بشكل (اكرامية) وتكون هذه الاسهم اما ملكاً فردياً لكل من له نصيبٌ واما ملكاً مشتركاً لمجموع العمال او لفئة منهم تألفت لهذه الغاية وتخول هذه الاسهم اصحابها حق الدخول في مجالس المساهمين ومجالس الادارة كما تخولهم ان يكون لهم صوت فيها .

وليست تعنينا النقطة الاخيرة في مثل هذا المقام ولا وضع العمال المساهمين الذين اشتروا انصبتهم بثمن نقدي . واننا نعلم ان العامل في مثل وضعه هذا وقد التزم ان يدفع الثمن ليحصل على سهم لا بد له من ان يرى نفسه في مستوى مساهم آخر واذا ما اشترك بعض الاشتراك في ادارة العمل (بالنسبة الى عدد ما يملكه من الاسهم) فيخضع لتحمل الخسائر: لان الاسهم التي اشتراها بطريقة فرضية (par hypothèse) قد تثمر الارصدة ومن المحتمل ان لا تثمر ابداً .

والامر الصريح الذي سيلفت منا الانتباه هو قضية العمال الذين يتناولون علاوة على اجورهم وبصفة مجانية (اما كاشتراك بالارباح واما كمكافأة على القدمية او كاكرامية) اسهم عمل .

ومما قيل «ان مساهمة العامل في المصنع من شأنها ان تفضي الى انهاضه معنوياً وعقلياً ، اذ يجب ان لا يبقى ذلك الانسان المهمل الذي انجبه نظام رأس المال لما قبل حرب ١٩١٤–١٩١٨ وانما عليه ان يصبح المعوان الفعال للعمل

(ويهتم بنتائجه) . فلن يظل الخادم الذي يشتغل بيديه فقط ولكنه الشريك (ولو بقسم على الاقل) المندفع الى الشغل بيديه وعقله وقلبه ويعزز نشاطه في المصنع الذي هو جزء من ملكه وذلك في فائدة كبرى لكل فرد من افراده.»

وهكذا ينشأ بدل الجشع تضامن ثمين اساسه المنفعة الشخصية والعدل (P. Dessart) . وحادى القول ان ما يحمل العامل على ان يكون شديد الاهتمام بمصير المصنع هو اشراكه بما يتعرض له من خسائر بشكل اسهم عمل اكثر مما يحمله اشتراكه بالارباح بشكل رصيد على ذلك

ولئن رغبنا في تقدير ما لهذه الطريقة من قيمة ينبغي لنا القول بداءة بدء ان هدفها هو نفساني وادبي بصورة خاصة ، تعطي العامل حقاً معيناً كل التعيين وتحدد تدخله في الادارة بالتدخل الذي يحق لكل مساهم ، وتنهض بمهمته الاجتماعية من دون ان تدخله في قضية اقتسام الارباح الشائكة سوى بصفة ثانوية .

ولهذا السبب راجت المساهمة العمالية في انكلترة رواجاً واسعاً . فاسهم العمل تخص عامة فيها الافراد لا فئات عمال . وعلى العكس من هذا فقد انتشرت في بلجيكا المساهمة النقابية — هي النقابة المالكة للاسهم — وقد اتسعت فيها . وفتحت مجالس المساهمين في وجه ممثلي طائفة العمل الذين استطاعوا ان يذكروا رأس المال بما عليه من واجبات ومسؤوليات اجتماعية تذكيراً مفيداً.

٥

ان قضية المساهمة في الارباح في سبيل اضافة زيادة الى موارد العامل لتجعل اجرته قريبة من بعض مُثل العدل تقودنا بديهياً (وذلك بتركنا على حدة كل حالات المساهمة التي لا عمل لحصص الدخل فيها) ، الى اشكال توزيع الربح الحديثة في احد المصانع وساكتفي بان لا اورد منها الا ثلاث حالات تبدو لي اشد اهمية لان معظم الحالات الباقية ليست الا فروعاً لهذه الاساليب الكبرى الثلاث.

وان المنهج الاول منها هو المعروف باسم منهج شولر (Système Schueller) او الاجرة النسبية . وقد ورد ذكر ذلك برمته في مؤلف السيد لويس ماير (M. Louis Maire) «ما وراء اوضاع المأجورين — تنظيم العمل الاجتماعي» بايو ، ١٩٤٥ .

ولا يغمض منهج التوزيع هذا الذي يترخى ازالة عدم طمأنينة الطبقة الكادحة العين على المبادئ التقليدية بشأن الاجرة وهو ليس منهجاً اشتراكياً قط بل يحاول فقط ان يؤمن للعمال طراز حياة اشد تقدماً وان يتقن طرق توزيع منتجات العمل ليضمن لهم منها نصيباً اوفر من دون ان يغير طبيعة الاجرة في عنصرها الاساسي .

وعقب عودة شولر من زيارته لبلدان الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٤١ اصدر كتاباً عنوانه « ثورة الاقتصاد » . ومما جاء فيه : « ان عالمنا الحالي لم يبق ما كانه سنة ١٩٢٠ فان تقدم العلم الفني قد ساعد ويوسعه ان يساعد على انتشار الانتاج انتشاراً لا يقابله اليوم زيادة محسوسة في مقدرة الجماهير الشرائية فمن الضروري البحث عن ايجاد نسبة بين حجم الاجور وحجم الانتاج . لان زيادتها ستسفر في دورها عن ازدياده . ومن الطبيعي ان تتجنب المصانع تدنياً محسوساً في اثمان منتجاتها لكي لا تصبح هذه العملية سبباً لافلاسها لانه اذا تدنت اسعار المنتجات تدنياً محسوساً بسبب وفرة البضائع وفرة كبيرة كانت مرغمة على اختصار انتاجها وتسريح عمالها فنضل الهدف . ومن الواجب ان يصحب ارتفاع الاجور نوع من ثبوت الاسعار ، وليس من سبيل الاستغناء عن ادارة الاقتصاد فهي ضرورية على شاكلة المشاريع السوفياتية ولكن يجب ان تكون بروح اخرى .

وبعد بسط هذا المبدإ اردف شولر قائلاً : عندما كانت الاجرة معدودة اجرة عدلاً حتى الحرب التي اندلعت سنة ١٩٣٩ كانت تستند قبل كل امر آخر الى اساس كونها تسد حاجات العامل واسرته .

ويعتقد شولر وهو لم يتخل عن وجهة نظره هذه انه من الواجب ان تقوم اجرة العامل اليوم على احصاء لانتاجه لان انتاج المصنع يظهر بصورة حسية في رصيد اعماله التجارية ومفاد ذلك انه من الواجب اقرار نسبة بين الاجور المدفوعة وبين رقم الاعمال التجارية كثلاثة وعشرين في المئة مثلاً ، ومن ثم يصار الى توزيع رقم هذه الاجور الكتلة الواحدة على العمال بالنسبة الى انتاج كل منهم وذلك على قدر ما تستطيع ان تعين انتاج كل فرد من افرادهم . ومن هنا كان اسم الاجرة النسبية التي تطبق في هذا المنهج على احد فروع الاجرة الاربعة .

واذا انشئت النسبة بين الاجور ورقم الاعمال التجارية ، فمن اي شيء تتألف اجرة العامل ؟ انها تشتمل على اربعة اقسام : ١ً : الاجرة — العقد التي حسبت بصورة تسدّ على الاقل مختلف حاجات العامل الشخصية . ٢ً : الاجرة — العائلية الممدّة لحاجات العيلة (نفقات عيلة وضمان الحياة) . ٣ً : الاجرة النسبية المتوقفة على رصيد اعمال المصنع التجارية والموزعة نسبياً الى الاجرة — العقد . جزء من الاجرة وضع على سبيل الاحتياط لتأمين العامل ضد الازمات .

ولقد تبنت بعض المصانع هذه الطريقة كمؤسسات بوريل (Borel) للانشاءات الجوية التي وزعت سنة ١٩٤١ كما قال السيد لويس ماير (M. Louis Maire) على عمالها ٣٦ ٪ من رصيد اعمالها التجارية وكانت تبلغ الاجرة النسبية احياناً حتى ٥٠ ٪ الاجرة العقد .

ومما لا شك فيه ان تطبيق الاجرة على هذه الشاكلة لامر حسن جداً في ذاته لان العمال يرون انفسهم اصبحوا يملكون مقدرة شرائية زائدة . ومع ذلك لا بدّ من ان تعترضنا ملحوظات عدة :

١ً : يقضي الواجب ببذل مجهودات لتزيد القوة الشرائية لدى بقية طبقات الشعب والا كان لا بدّ من قيام عدم التوازن : الذي سنعود الى النظر فيه . ٢ً : من الواجب اتخاذ الحيطة لئلا يقضي الاغراق في الانتاج الى بعث الازمات . ٣ً : من الواجب ان نجعل السعر مستقراً . بيد ان الاختبار قد اظهر صعوبة هذا الامر . وكيف نتمكن من اتباع سياسة الاسعار من دون ان نحددها تحديداً تفرضه السلطة ؟ اننا ننتقل الى اعتناق الاقتصاد الاشتراكي من دون ان نريد ذلك . واعتقد شولر ان الواجب يدعو الى محاولة تطبيق طريقته وتعميمها شيئاً فشيئاً وقال ان « ثورة الاقتصاد » ستنفحنا « بالاقتصاد في الثورة » .

ه

اما منهج دوبرل (Dubreuil) فينتقل بنا الى تطبيق الاجور تطبيقاً مغايراً كل المغايرة . فالعقود الاجماعية اذا ما تضمنت بنوداً بشأن الاجرة — وهذا ما لا يتفق ان يتم دائماً — تمكّن العامل ان يكون بنجاة من اهواء صاحب العمل الطائشة في تحديد الاجور ولا تدع عاملاً ضعيفاً تحت رحمة صاحب مصنع قوي .

ولا ريب في ان منهج « دوبريل » يقدّم للعامل ميزة اشد ضماناً .

واقام هياسنت دوبرل عشر سنوات في الولايات المتحدة وكتابه الرئيسي عنوانه « الجمهورية الصناعية » وقد صدر عام ١٩٢٤ ؛ وفي سنة ١٩٣٦ اصدر مع ريملهو (Rimailho) « رجلان يتحدثان عن العمل .. مساهمة في درس تنظيم منصف للعمل » وسوف ترى كيف يؤثر تنظيم العمل هذا على الاجرة . ومما قاله « ان العامل انسان حر وليس عبداً فمن الواجب ان يكون له نصيبه من المسيرة . » وهذه هي الفكرة القائمة في اساس تنظيم « المصانع المستقلة » او « شركة العمل المضاربة » . ولا تلتبس الطريقة التعاونية التي امتدحها دوبرل مع « تعاونيات الانتاج » القديمة التي كان يقدّم فيها العمال جزءاً من رأس المال او كانوا يحاولون على الاقل الحصول على جزء من رأس المال الموضوع في العمل . ولم يسعَ الى تحويل العامل الى صاحب مصنع او الى رأسمالي لانه كان يعرف حق المعرفة انهُ ليس اهلاً لذلك ولكنه قد توخّى فقط في تعاونية العمل ان يقضي على وسيط مزعج : الا هو نائب صاحب المصنع المأجور الذي يذهب للتفتيش عن العمال ويكتفي بمراقبة شغلهم وتنسيقه واراد ان توزع اجرته بين عمال الفرقة اما العامل نفسه فيظل عاملاً ليس الّا .

اما شركة العمل المضاربة فهي فئة من العمال قد حزموا امرهم والفوا فرقة تأخذ على عاتقها ان تنجز عملاً معيناً من قبل بسعر محدود سابق بدون وسيط وليس لفرقتهم وسيط بينها وبين صاحب العمل وكلهم عمال رئيسهم منهم قد اختاروه بانفسهم وقد انضم بعضهم الى بعض بحريتهم وهم لا يفتقرون بانضمامهم هذا الى طلب معونة فئات اخرى ويوزعون الشغل بعضهم بين بعض تحت اشراف الرئيس العامل . وبما ان السعر محدود سلفاً فلا حاجة بهم الى من يتولى مراقبتهم . وذلك خلا المراقبة التي يقوم بها رجال فرقتهم على التبادل . اما جملة الاجور التي تشرف عليها الفرقة فمقدر لها ان تكون اجرة عدلاً ومرتفعة وذلك بعد ارجاع النفقات الخارجية الى ادنى حد وبعد ان اصبح من مصلحتهم ان يعتنوا بمعداتهم .

ويقتسم اعضاء الفرقة هذه الاجور بعضهم بين بعض بالنسبة الى انتاج كل

منهم والى الزمن الذي استغرقه احدهم في العمل تحت اشرافهم . أوَ لا نرى ان لدينا بهذه الشركة طريقة تخمينية متقنة كل الاتقان . اما نفقات العيلة فتدفع على حدة .

ووضعت طريقة دوبرل موضع العمل في ديجون (Dijon) بمصنع روينه (Ruinet) « معمل الاحذية » المقسوم الى ستة معامل مستقلة فافضت الى زيادة في الاجور والعناية بالآلات والادوات والى تنظيم العمل تنظيماً اسبوعياً بشكل اشد مرونة . امّا من حيث ناحية الاجرة فلا تناقض هذه الطريقة المفهوم الدارج بشأن الربح لانها لا تمسّ فائدة صاحب العمل .

ان « مشروع ارباب الاعمال المسيحيين المشترك لاصلاح المصنع » (١٩٤٤) يفضي بنا الى افكار اعرق تأملاً وذات تأثير اعظم طبعاً في اجرة العامل . اما منهج « اقتسام الاثمار » فمردّه الى النقاط الاربع التالية :

١ً : يجب ان تشرك رأس المال والعمل في مغانم المصنع التي ينبغي ان لا تظل وقفاً على صاحبه فقط مما يفيد في معنى الكلمة الحصري ان « الغنم » الذي كان حتى الآن من نصيب صاحب العمل يجب ان يعود جزء منه الى المأجورين .

٢ً : لا يتمّ هذا التوزيع بموجب تشريع خارجي عن المصنع وانما بتنظيم داخلي . فالمصنع جمعية عمل غايتها مصلحة جميع المشتركين فيه (من دون ان تنسى مصلحة المجتمع عامة) : فعلى مجلس المصنع الذي للعمال كلمتهم فيه ان يقوم بتوزيع عدل .

٣ً : ن العامل هو شريك رب المصنع . فاشتراكه بالغنم يضمن له نوعاً من الملكية الخاصة التي ستظل اساس المنهج الاقتصادي وذلك ما عدا المشاريع الكبرى الصائرة الى التأميم اذا ما دعت المصلحة العامة الى تأميمها . اما هذه الملكية الخاصة فسيكون توزيعها التوزيع الافضل .

٤ً : وسيجري توزيع الغنم بين صاحب المصنع والعمال بالنسبة الى مجهودات كلّ منهم . اما رئيس المصنع الذي اختاره « ذوو رؤوس الاموال » و« العمال » في آنٍ واحد فمستقل بادارة مصنعه بيد ان عدة امور هي من اختصاص المجلس ولاسيما قضية منح الغنم .

ولقد وضعت طريقة « اقتسام الاثار » التي من نتائجها تزييد مقدرة الجماهير الشرائية واعادة توزيع الدخل نوعاً لافادة المصانع المتنوعة كل التنوع موضع التنفيذ عملياً في منهج ديوا (Dubois) بحيث وزعت جميع ارباح المصنع بين المشتركين بعد تأمين النفقات الاحتياطية والاستهلاكات من دون ان يبقى هناك رصيد سوا. اكان كبيراً ام صغيراً — كان العمال دائماً يجهلونه — ليعود الى جيب رئيس المصنع وحده .

لقد قلنا ان الاجرة العدل تتوقف في الوقت نفسه على حاجات العامل واسرته وامكانيات المصنع فبقي علينا ان نبين باقتضاب انها تتوقف ايضاً على بعض مقتضيات الصالح العام .

ان الاجرة العدل لن تحدد ابداً بصورة حسابية محض (كما يريد احد المذاهب الواقعية) وما هي مطلقاً مسألة عاطفية صرف (كما لو كانت المحبة والرفق يستطيعان الوصول الى تحديد معدلها) . لان ثمة كثيراً من العوامل لا بد من اخذها بعين الاعتبار ... مثلاً « ان الصالح العام يقضي كما تقول البراءة (Quadragesimo anno) بأن يكون في متناول كل اعضاء المجتمع امكانية كافية للعمل وان تجتنب الجميع، وعلى قدر المستطاع، عضة البطالة . وتتعلق هذه الامكانية تعلقاً كبيراً بمعدل الاجور التي تتيح السوانح العديدة للعمل طالما لا يزال ضمن حدود معقولة . اما ابتعاده عنها فينقص فوراً هذه السوانح ويقللها » .

والصالح العام يتطلب ايضاً قيام نسبة عدل بين مختلف درجات الاجور . اذ يجب ان لا يكون عمال الصناعات الكبرى هم الوحيدون الذين يستطيعون « ان يدخروا جزءاً من اجورهم ليجعلوا منه احتياطاً يخولهم انشاء رأس مال صغير » ، كما تقول البراءة بل يجب ان تكون هذه الامكانية سانحة امام الجميع ومنظمة بعض التنظيم اذ لا ازدهار عام وان كانت الاجور المدفوعة في الصناعة كافية، وذلك اذا لم يتناول عمال الارض والصناع اجراً كافياً ولا يرون مقدرتهم الشرائية مستمرة ضمن حدود ضيقة كل الضيق .

ه

ان كل ما ذكرنا يكفي ليبين تعقيد هذه القضية . ولئن كان من السهل

وضع نهج للسير عليه : اجور كافية تسدّ حاجات العامل واسرته واجور تتناسب مع ارباح المصنع واجور تأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الصالح العام فانه لمن الصعب غالباً ايضاح التفاصيل التي لا بدّ من اقرارها. وفيما يختصّ بشأن السعر العدل — ولا ننسَ ان الاجرة هي سعر وان لم تكن ثمن بضاعة وحدها فقط — لا تكفي حرية المتعاقدين ولا المقابلة الحسابية بين نفقات الانتاج واثمان البيع ولا الرغبة « التي هي من الخصائص العاطفية » في تنزيل قيمة الغنم الذي يعود الى رئيس العمل تنزيلاً على قدر المستطاع، بل يجب الالتجاء للحكم في جميع الادلة التي وفّرتها الظروف الى تخمين الرجال الاحرار ذوي الكفاءة المستقيمين العام ».

واننا لا نعتقد فيما يتعلق بالاجرة ان حرية الطرفين هي ضمان مطلق ولا بعض الرغبة التي هي من الخصائص العاطفية في اقسام الغنم اقتساماً منصفاً ولا المقارنة الحسابية بين نفقات الانتاج وارباح المصنع وانما ينبغي لنا ان نرجع فيها بحسب تعليم قديم يعود الى القديس توما الى تخمين الرجال الاحرار ذوي الكفاءة المستقيمين العام ليقضوا بكل انصاف في مختلف العناصر المعروضة عليهم .

والبراهين التي اوردها الاب دي باساج (du Passage) في مقالته بمجلة (Études) ٢٠ ايار سنة ١٩٢١ على نقض هذه التعاليم المسماة « بالواقعية » كما يقول جورج فالوا (Georges Valois) وضرورة العودة الى قاعدة التخمين العام تبدو لي براهين حاسمة .

ويجب ان تكون الاجرة كافية لسد حاجات العامل (هذا هو الحد الادنى لها) ومن ثم ان تزداد كلما ازداد تقدم المصنع وان يظل معدلها منطبقاً على مقتضيات الصالح العام . فان وجدان ذوي الكفاءة النيّر هو وحده الذي يقوى على الوصول الى منتهى البت الضروري فيها لا الحساب الغامض: وانها للخلاصة التي تفرض نفسها فرضاً كنتيجة لبحثنا هذا . فالعلم الفني لا يكفي ابداً . فكل حلّ مقبول بشأن قضية الاجرة العدل يتطلّب في كل حال تدخّل الوجدان المستقيم الذي يوازن العدل بين جميع المصالح المتضاربة.

ولنا رجاء وطيد ان يكون هذا الوجدان الوجدان المسيحي القليل الخوف والتهور ليُعنى بمصالح الكل كما يُعنى بالمجتمع عامة .

نشيد الرسل القديسين

للشاعر رومانس المرنم

عرّبه عن اليونانية

الاب نيقولاوس قادري ق. ب.

توطئة

اننا نعجب اليوم في عصرنا المادي والذي بسرعته الصاخبة يقتل فينا حياة الروح نعجب اذا ما سمعنا ان المسيحيين الأولين كانوا يقضون في الكنائس الساعات الطوال. ونذهل من ان صلواتهم الهادئة المتتابعة كانت تتغلغل الى اعماق الليل وطلوع الفجر فكانوا بذلك شهودًا لشمس المغيب وشمس الشروق.

ذلك لاننا نجهل كم كانت صلواتهم متنوعة واحتفالاتهم غنية ومرتبة مصطبغة بلون الدقة والجمال والاتزان الكامل . فكانت فروضهم واناشيدهم بجمالها وعظمتها وحسن اتساقها مسيطرة على العقول والارادات تصعد بالانسان الى ما فوق هذا العالم المادي بحيث وهو بعيد عن الاضطراب والقلق كان يتحد بالله الراحة المتسعة . ومن هذه الجمالات الساحرة التي كانت موضوع اعجاب المؤمنين اناشيد رومانس وكانت اصداء مقطوعات الاناشيد تتجاوب في قلب العاصمة البيزنطية وبين حنايا كنيسة آجيا صوفيا ..

اجل تفوق رومانس على جميع من سبقه من الشعراء الدينيين ولم يعرف التاريخ من بعده شاعرًا دينيًا حبته الطبيعة مزايا الشعر الصافي وصفاته كما عرفها في شاعر الملوك ومتوج القديسين رومانس المرنم. تفوق رومانس بعبقريته الشعرية الحقة وبسطة خياله وسعة معارفه وغنى لغته ومرونة الفاظه وجمال الوحي النضير واتزان الالهام وتجمع موضوعات الشعر في اناشيده . كل هذه الصفات تجعل منه شاعرًا مجيدًا وعبقريًا وحيدًا فريدًا .

واننا نتقدم من قرائنا اليوم ونزف اليهم نشيدًا جديدًا لهذا الشاعر معربًا عن اليونانية ليقفوا على جمال هذا الوحي الخصيب .

ان نشيد الرسل هو مسرحية دينية كاملة وهو علاوة على ذلك احد اناشيد الملحمة الكبرى من مجموعة تآليفه بل قل هو ملحمة صغيرة يؤلف وحدة فريدة. نظمه الشاعر رومانس لعيد الرسل الواقع في الثلاثين من حزيران . تخيل الشاعر المسيحي وهو في تأملاته العميقة وصلواته الخاشعة وسجوده المتناهي ذلك المشهد البسيط الذي مرَّ امام باصرته ولوحة خياله حيث جمع يسوع تلاميذه على جبل الزيتون وودَّعهم وسلمهم رعاية الاغنام والسهر على النفوس ونشر التعاليم في كل الارض.

فكاني بالشاعر العبقري ينظر بعين خاطفة للالوان النفسية وقلب يشعر بدقة العواطف فيرى جمع الرسل يتألب حول معلمه ويسمع كلامه فكأنه حاضر المشهد الذي تم منذ خمسة قرون على جبل الصعود وينتبه بروح الحماس الى تلك الحوادث التي مرت منذ القدم فيعيرها من جديد ذلك التأمل وتلك الحياة فيجسدها بدقائقها وحركاتها واصواتها . وهذا التأمل يثير قوى الشاعر فيحرك قلبه ويلهب خياله بنار اليقظة الكبرى فيتفتح عقله على دقائق الحقائق فيسمعها من فم يسوع يفوه بها ويعلمها لتلاميذه الاحباء. فيغرق آنذاك بالسجود والحمد والشكر وينتقي لذلك الايقاعَ الجميل والمقاطع الموسيقية والاتساق اللذيذ والنبرات الشجية التي تغذي نار عبقريته المقدسة فيسكر سامعيه بخمرة الشعر ورحيق الموسيقى ويصعد بهم الى ارقى ذرى الوحي حيث تتلاشى الاوهام وتتفكك الاغلال المادية ويزول الزمن المتقطع ولا يبقى الا الجمال الثابت والازل المتجدد.

يبدأ النشيد بمقدمة هي صرخة القلوب دعاء ليسوع الاله : « ايها المسيح الاله انت بحجتك السامية للانام اوضحت الصيادين اوسع علماً من الخطباء »[1]
وتلي هذه المقدمة مقطوعة ثانية ربما نظمها الشاعر في ظرف آخر او سنة اخرى وهي تحمل فكرة العيد الاساسية وعرض الاشخاص على المشهد : « الكارزين البواسل بالكلمة الالهية وهامات رسلك دعوت ايها الرب . »

ثم يسير النشيد بالمقطوعات الاربع والعشرين على نغمة عذبة ورصينة وترتبط المقطوعات باللازمة وبالوزن وخصوصاً بالتوزيع الملخص هكذا « مزمور الحقير رومانس » : Τοῦ Ταπεινοῦ Ρωμανοῦ ψαλμός.

١) مقطوعة ١

وبهذا النشيد يبدأ الشاعر مقطوعته الاولى بالاستلهام فيستوحي رومانس كما كانت عادة الشعراء الغنائيين في اناشيدهم وملاحمهم ان يستلهموا ربة الشعر كما نجد ذلك في مطلع الالياذة : «ربّة الشعر عن اخيلا بن فيلا» ومطلع الانياذة للشاعر اللاتيني فيرجيل :

« Musa, mihi causas memora, quo numine laeso ».

كذلك الشاعر رومانس يستوحي نشيده من اله الوحي من يسوع المخلص «اوضح لساني ، يا مخلصي ووسع فمي واملاه Τράνωσον μου την γλώτταν. Σωτήρ μου

وبعد عرض الاشخاص والمكان والزمان يأخذ العمل المسرحي مسيره بأناقة وهدوء. فيربط الشاعر موضوعه بالفكر الرئيسي ويجمع بين المسيح « الراعي » وبين الرسل « النعاج » وآنذاك يضع الشاعر على المشهد المسيح نفسه ويعطي لشفتيه الالهيتين نصوص الكتاب المقدس . ويستعرض يسوع رسله ويخاطبهم كلام الطهر والحب ثم يرسلهم الى متابعة الرسالة الالهية ويوجه الى كل واحد منهم كلاماً خاصاً ومشورات شخصية يستوحيها الشاعر من مشاهد الانجيل وآياته البينات .

ويعرف رومانس كيف يُلبس اناشيده إهاباً من المسرحية جميلاً : « ان الراعي جمع بعد القيامة النعاج التي كان الخوف قد بددها حين الصلب . » ثم يوجه كلامه لبطرس : انظر الي يا بطرس ، انظر كيف تؤدب الناس . فكّر بخطيئتك — وانت يا اندراوس فتش عن الضليل — يايوحنا بيّن العمل — وهكذا اصنع انت ايضاً يا يعقوب — اذهب يا فيلبس — يا توما عندما تمحو كلمات الارتياب القديم بايمانك الحاضر — البث عشاراً ، يا متى » ولا يرينا رومانس الا سبعة من تلاميذ يسوع لئلا يسأم السامع ولكن الشاعر يحسن لباقة يختصر حديثَ يسوع لجميع الرسل « لئلا يتعب » فيكلمهم خطاباً شاملاً جامعاً . اجل يصور رومانس بريشته مشهدَ الراعي تحوط به نعاجه[1] كما في التصاوير والنقوش الفنية الرومانية القديمة ويتراءى المسيح يستعرض تلاميذه واحداً واحداً ويكلمهم ويسألهم ويجاوبهم ويوجه اليهم ارشاداته الرصينة وكلماته العذبة : ثقوا فانا وحدي غلبت العالم ، انا وحدي بددت الذئاب ، ما كان معي احد بل كنت

---

[1]) مقطوعة ٤

وحدي انا العارف وحدي اسرار القلوب .»[١] فهذه الكلمات تولد في قلوب الرسل وعلى شفاههم اقرارًا جميلًا رائعًا بايمانهم الحي بيسوع العارف وحده اسرار القلوب فيقولون له : « انت اله انت وقبل الدهور وبغير فنا. » إننا نعرفك الهًا واحدًا مع أبيك والروح»[٢].

بينما يتبسط النشيد بعظمته الساحرة تأخذ المقطوعات حلتها من المسرحية المشبعة بالحياة والحركة فيتناوب الاشخاص على المشهد بدون سأم ولا ضجر وتتفجر الحياة بالحوار الرشيق وتتدفق فيه الجمالات فيسأل السامع والقارئ ماذا يقول لهذا او لذاك ولا يلبث النشيد ان يتفلت من قيود القصة والاغنية ليصبح مسرحية حقيقية كاملة .

على انه وان يكن للنشيد صبغة المسرحية فهو مغناة رائعة لما فيها من المقاطع والاهجنة الموسيقية الساحرة

Ἐκελάδησε μέλος γλυκύ, τῇ ποίμνῃ .
Θάρσος διδούς, καὶ μικρὸν ὡς δειλοῖς (٣)

واجمل حكم على جمال الالفاظ ان نقرأ النشيد باللغة اليونانية ومعلوم انه من الصعب لا بل من المستحيل ان نحكم على شاعر من ترجمة نثرية حتى ولو قرأنا ذلك الشاعر بلغته يبقى على الاديب ان يعيش في تلك الفترة من الزمن الذي عاش بها الشاعر والبيئة التي كان يحل عواطفها وايمانها وثقافتها وبذلك يستقيم الحكم على الشاعر وشعره .

وافكار رومانس سامية وصوره بديعة . اسمعه يقول بفم المسيح لبطرس: «فكر بخطيئتك تألم مع الجميع برفق واذا ما نفختك الكبرياء فتذكر صياح الديك واذكر دموعك التي غسلتك انا بجاريها .»[٤] ثم نسمع المسيح يقول لاندراوس « فتش عن الضليل . بصنارة كنت تصطاد قبلًا فتعلم الان ان تصطاد بالصليب »[٥] .

وهذه الافكار السامية نراها تتحلى بالصور الرمزية الفنية : « يا يوحنا احفر لي خندقًا بلسانك كما بمعول » — فآتي اليك عندما تشاء. واسقي زرعك وارويه هلا نثرت اقوالك كحبات الحنطة فاضاعف حصادك »[٦] وهناك صورة الكرمة

١) مقطوعة ٤ ٢) مقطوعة ٢٤ ٣) مقطوعة ٥

٤) مقطوعة ٥ ٥) مقطوعة ٧ ٦) مقطوعة ٨

والجرث واذا « بالرسل اغصان كرمة المسيح وخطوط الفنان السماوي .»[١]

وهناك افكار سامية ينثرها الشاعر في نشيده هناك الرفق بالخطأة : « تألم مع الجميع برفق . »[٢] هناك الغيرة على النفوس والبحث عن الضليل : « فتش يا اندراوس انت ايضاً عن الضليل .»[٣] ومحبة الرسالة : « هلا نثرت اقوالك، يا يوحنا، كحبات من الحنطة . »[٤] ولهذه الافكار الفنية عظمة وسمو ترفع بالقارئ الى مستوى الشاعر نفسه وترتقي به لتدخله في جو مشبع من الجمال الالهي.

ويجمل بنا ان نذكر ان هذا النشيد مشبع بالتعاليم اللاهوتية الواضحة فهنا مساواة الاقانيم : « انا والاب في الروح الواحد .»[٥] وهناك اتحاد الابن بالآب : « لا تفصلني عن ابي ، لا تقل اني رأيتُ الابن واما ابوه فما ابصرته ، لقد ابنت الك أنّ الاب فيَّ وانا في الاب.»[٦] وقد نرى تعاليم قيمة في الجسم السري « عندما تقفون امام القضاة تنظروني في وسطكم وحينما تقيَّدون انتم فانا أُقيد معكم . »[٧]

والنشيد رائع بلون البساطة ، رائع بفيض الصفات والمزايا ، رائع بخياله الشعري ورومانس يبقى في قصائده العبقرية الفياضة بالحرارة والحياة والقوة والجرأة في الأوضاع والالفاظ الفنية « بالسينات » والتعابير الواضحة والاساوب الرصين والمشاهد الخصيبة بالفن والدرس النفسي العميق كل ذلك يجعل من قصائد رومانس مجموعة جمالات تتوارد على خاطره فينسجها قلمه وتبقى مقطوعاته سلسلة من الالواح الخيِّرة بالمعاني والالفاظ الموسيقية والخيال الطليق على عالم من النبرات والصور ومن الصعب جداً ان لا يتأثر القارئ او السامع لقصائد رومانس بتلك المجموعة من الاهجنة الرنينة دائماً وبذلك الاتساق والايقاع الذي خلق عظيماً وسامياً ليردد في اجواء العظمة البيزنطية على مر الاجيال ، يحكم اذن ان النصرانية لا تحسد الاجيال السالفة على شعرائها الغنائيين فلها بشخص رومانس شاعرها وقيثارها المطرب في كل العصور .

---

١) مقطوعة ٣ ٢) مقطوعة ٥ ٣) مقطوعة ٧

٤) مقطوعة ٧ ٥) مقطوعة ١٠ ٦) مقطوعة ١٠

٧) مقطوعة ١٧

نشيد الرسل القديسين (١)

للشاعر رومانس المرنم

مقدمة اولى

ايها المسيح الاله ،
انت بمحبتك السامية للانام
أوضحت الصيادين
اوسع علماً من الخطباء ،
وأرسلتهم يبشرون
في الأرض كلها .
فانت بهم ثبّت كنيستك
وامطر بركاتك على المؤمنين ،
ايها العارف وحدك
اسرار القلوب (٢) .

مقدمة ثانية

الكارزين البواسل
بالكلمة الالهية
وهامات رسلك
دعوتَ ، ايها الرب ،
الى التمتع بخيراتك
والراحة الابدية ،
وقبلت أتعابهم وموتهم
افضل من كل الذبائح
ايها العارف وحدك
اسرار القلوب .

(١ Pitra : Hymnographie de l'Église Grecque, pp. I-X

٢) يوحنا: ٢١-١٧ ؛ سفر الملوك الثالث : ٨-٣٩ ؛ سفر اخبار الايام الثاني : ٦-٣٠

١ أوضح لساني ، يا مخلصي ،
ووسع فمي واملأه
وامنح قلبي تخشعاً
لكي أتبع ما اقول ،
واعمل اولا
ما اعلمه
فقد قيل :
ان كل من يعمل
ويعلم
فهذا هو العظيم [١]
لاني اذا كنت اقول
ولا اعمل ،
فانا أعد كصنج يطن [٢] .
لذا هبني القول السديد
والعمل المفيد ،
ايها العارف وحدك
اسرار القلوب !

٢ هكذا في القدم ،
كان تلاميذك
يتممون تعاليمك اولا
ويعلمون ما يعملون
وبكل قوة
كانوا معاً يبشرون
بتعليمك
وسياستك
فمن كان يراها
ويسير عليها
كما سار رسلك
فذلك هو العظيم .
فالتجرد عن خيرات الأرض ،
والاهتمام الدائم بالسماء ،
وحمل الصليب على الاكتاف [٣]
هو فرح عند الموت ،
كما رتبت انت ،
ايها العارف وحدك
اسرار القلوب !

---

١) متى : ٥ - ١٩
٢) ١ كور ١٣ - ١
٣) متى : ١٦ - ٢٤

٣ ايها المؤمنون،
ان تبيان فضائل الرسل
لموضوعٌ بهيٌ
يعطر الأرض كلها،
فالرسل اغصان كرمة المسيح[١]
وخطوط الفنّان السماوي.
صيادون قبل المسيح،
وصيادون بعد المسيح[٢].
والذين كانوا يترددون الى البحر
ـها هم الآن يفيضون
عذب الكلام.
قبلًا كانوا
يصيدون الاسماك،
والآن علمتهم صيدَ الناس
انت ايها العارف وحدك
اسرار القلوب.

٤ ان الراعي جمع
بعد القيامة
النعاج التي كان الخوف
قد بددها حين الصلب.
ولما وقف بهم
في العلاء على الجبل
أسمعهم لحناً مطربا
وبث الشجاعة
في الرعية.
كلّمهم قليلًا كجبنا.[٣]
وهتف قائلًا:
«ثقوا فانا وحدي
غلبت العالم[٤]،
انا وحدي بددت الذئاب
ما كان معي احد
بل كنت وحدي،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب.»

١) يوحنا: ١٥ - ٥
٢) متى: ٤، ١٨ - ١٩
٣) يوحنا: ١٤ - ١
٤) يوحنا: ١٦ - ٣٣

٥ اذن اذهبوا الى الامم كلها
وانثروا في الارض
زرع التوبة
ورووها بالتعاليم .
انظر اليَّ ، يا بطرس
انظر كيف تؤدب الناس ،
فكّر بخطيئتك
تألم مع الجميع برفق ،
بسبب هذه الجارية
التي زعزعتك .
واذا ما انفختك الكبرياء ،
فتذكر صياح الديك[1] ،
واذكر دموعك
التي غسلتك انا
بمجاريها ،.
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

٦ يا بطرس ، اتحبني ؟
اصنع ما قلته لك .
ارعَ رعيتي[2] ،
واحب الذين احبهم انا ،
تألم مع الخطأة ،
وتذكر عطفي اليك :
اني قبلتك
بعد نكرانك لي ثلاثاً
انت احرزت اللصَّ
بوّابَ الفردوس ،
هو يشجعك .
فارسل اليه من تشاء .
بكم أنتم سيعود
آدم اليَّ صارخاً :
ان الخالق اعطاني
اللص بواباً
وكيفا صاحب المفاتيح
انه العارف وحده
اسرار القلوب .

---

١) متى : ٢٦-٧٥
٢) يوحنا : ٢١-١٥ ، ١٧

٧ وانت يا اندراوس، بي تقوَّ! ٨ يا يوحنا بين الآن العمل.

كما وجدتني اولاً[1]
وجدتك انا
فتش انت ايضاً عن الضليل،
ولا تنسَ المهنة الأولى
لاني بها سأعلمك
المهنة الثانية[3]
كما كنت قبلاً عارياً في البحر
فالآن الآن تعر
عن الحياة
فتعلّم الان أن تصطاد بالصليب
بصنارة كنتَ تصطاد
بالشص كنت تقتنص قِدماً
فمنذ اليوم سأعلمك
القنصَ بجسدي
انا العارف وحدي
اسرار القلوب

الآن الآن ليعلم الجميع
اني ما اسندتك
الى صدري باطلاً[2]
فاصنع أتلاما
لينبوعيَ،
فيدفق حبك
مجاريه:
احفر لي خندقاً
بلسانك، كما بمعول،
فآتي اليك عندما تشاء
واسقي زرعك وارويه.
هلّا نثرت اقوالك
كحباتٍ من الحنطة
فأضاعف حصادَكَ
واكثره
انا العارف وحدي
اسرار القلوب.

---

١) يوحنا ١ : ٤٠–٤١
٢) متى ٤ : ١٨–١٩
٣) يوحنا ١٣–٢٥

٩ وهكذا اصنع
انت ايضاً ، يا يعقوب :
لا تهمل التبشير
حين تذكر اباك زبدى
الذي فضلتني عليه
انت تعلم كيف تركت
اباك في السفينة[١]
واحببتني انا الخالق .
الا أكمل ارادتي مع رفاقك !
لا تخف الخونة
فقد بددت مشوراتهم ،
وعندما يقطعونك
بالسيوف[٢]
فكّر فيّ انا من
طعن جنبه بحربة
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

١٠ اذهب ، يا فيلبس مع هؤلاء
وبشر بي كما تراني
وتسمعني الآن .
لا تفصلني عن ابي ،
لا تقل اني رأيت الابن
واما ابوه فما ابصرته[٣]
لقد ابنت لك
انَّ الآب فيّ وأنا في الآب .
انا لم افارقه ،
بل اتمم ما يريد
وهو يتمم ما اشاء .
انا والآب في الروح الواحد .
سارسلك بشير الروح
والمحامي عنه
انا العارف وحدي
اسرار القلوب

١) متى : ٤ ، ٢١–٢٢
٢) اعمال : الرسل ١٢–٣
٣) يوحنا : ١٤ ، ٨–٩

١١ يا توما ، عندما تمحو
كلمات الارتياب القديم[1]
بايمانك الحاضر ،
بشر بالذي فتشته .
قد اقترب الزمان
الذي كنت دائماً
تتوق اليه ،
لتجابه شعب العبرانيين .
لديك الآن بجلاء
ضمانات قيامتي .
نظرت مواضع المسامير ،
وراقبت آثار الحربة[2]
فما لك بعد من عذر ،
فقد ازلت عنك كل ريبة
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

١٢ البث عشاراً ، يا متى ،
وعشّر عدوّ آدم ،
كما كنت تفعل قدما[3]
بالعابرين .
لا تُشفق حتى تقبض منه
آخر فلس .
واجلس وراقب
الطريق المؤدي
الى الجحيم ،
واذا وجدت
قاتل الانسان
خارجاً من منازلي
فاجلس وعشّر
واظهر قاتل الانسان عارياً ،
كما امرتك
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

---

١) يوحنا : ٢٠-٢٥
٢) يوحنا : ٢٠-٢٧
٣) مرقس : ٢-١٤

١٣ هوذا كلامي واحد
انطق به للجميع
حتى لا اتعب
حين اعلم تلاميذي
واحدًا فواحدًا .
مرة قلت لقديسي
اذهبوا الى العالم اجمع
وتلمذوا لي الامم
والملوك[1]
فقد دفع اليَّ ابي كل شيء[2]
ما فوق وما اسفل
التي كنت اسود عليها
قبل ان اخذت الجسد
والآن فاني ملكت
على الجميع واخترتكم لي
نخبةً مقدسةً
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

١٤ فاذهبوا اذن
الى كل الامم ،
وانثروا في الأرض
زرع التوبة ؛
ورووها بالتعاليم
سمع المسارون هذا
ونظر بعضهم الى بعض
وحركوا رؤوسهم :
من اين لنا
الصوت واللسان
حتى نخاطب الجميع ؟
من يعطينا القوة
ان نجابه الشعوب والامم ؟
فنحن اميون ، ولا علم لنا
من اين لنا كل ذلك
لنفعل ما امرتنا به
انت العارف وحدك
اسرار القلوب ؟

---

١) مرقس : ١٦–١٥ ، لوقا ١٠–٢٢
٢) متى : ١١–٢٧ ، متى ٢٨–١٨
٣) متى : ٢٨–١٩

١٥ لا يضطرب قلبكم الآن[١] ١٦ مع ذلك ساعطيكم قوة

ولا يظلم العدوُ عقلكم ،
لا تفكروا كالاطفال ،
بل كونوا حكماء
كالحيات[٢] .
من اجلكم
انا ارتفعت كحية[٣]
لا تهملوا تبشيري
بسبب الخوف ،
انا لا اشاء
ان اغلب بالقوة ،
انما انا اغلب بالضعف .
انا لا افرح بالمتفلسفين ،
فقد أحببت
حماقات العالم ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب

قوة تقيم كثيرين من السقوط
سأعطيكم لساناً
يقطر الحكمة
فقولكم يقطع قول ديموستين
لقد غلب الجليليون
الاثنائيين
وكيفا ، بطرس نفسه
يهدئ الآخرين ،
عندما يبشر بي .
واما القول « ماران اتى » ،
فيبدد الاقوال الشاردة
والخرافات ،
والناصرة ترعزع كورنتس
وعندما انتم تنطقون ،
فانا اشددكم ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

١) يوحنا : ١٤–١
٢) متى : ١٠–١٦
٣) اشارة الى ما جاء في قول المسيح : وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي ان يرفع ابن البشر . يوحنا : ٣، ١٤، ١٥، ٢١

١٧ بالشتائم جميعكم تغسلون ،
وفي السجون تحبسون ،
وبالسلاسل بعنف تقيدون ،
وللولاة تسلمون(١) ،
لكني لا أدعكم يتامى .
فانا معكم حتى المنتهى
وعندما تقفون
امام القضاة ،
تنظروني في وسطكم ،
وحينما تقيدون أنتم ،
فانا اقيد معكم .
ألا احتملوا كل شيء
معي وبي !
واستمروا على عزمكم
فأجاهد انا بكم ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب !

١٨ عندما سمع التلاميذ الحكماء
كلمات المعلم الحكيم
اجابوه عليها :
انت تبشرنا
بكل ما هو قاس ،
ومفعم خوفاً وموتاً
قد كنا نفكر الآن
في الهرب من هذا
لنتحد بك .
وان انت اسلمتنا
الى القساة ،
فانت بالحقيقة تخلصنا
تدعونا الى الراحة .
وها انك
تتقدمنا الى الجهاد ،
انت العارف وحدك
اسرار القلوب ؛

---

١) متى : ١٠ : ١٦-٣٤
٢) متى : ٢٨ : ٢٠-٣٠

١٩ هوذا الحظ يدعوكم
الى الجهاد ،
وشريعة المحبة
تطلب منكم
ان تظهروا عمل الحب
تألموا لأجلي كأحباء ،
كما انا تألمت
من اجل الأحباء ،
من غير ان أكون مديناً لاحد،
ما كان من داع
ليدعوني الى الموت ،
انا قبلت الموت ،
وصبرت على الصليب
كمدين .
انا ، انا البريء.
رفعت دينكم الابوي طوعاً ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب.

٢٠ فاذهبوا اذن
الي العالم أجمع ،
وانثروا في الأرض
زرع التوبة
ورووها بالتعاليم
كيلا يبقى انسان
خارج شباككم .
فانا ابتهج
بالراجعين اليّ .
واعلموا انتم ايضاً :
ان لو عاد اليّ
بعد التسليم ،
ذاك الذي أسلمني
لمحوت له خطيئته
واتحدته بكم ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

٢١ أبغضوا الحزن واليأس ،
فهما يدفعان كثيرين
الى الموت كما تبين
هذا في يهوذا
فاعرفوا كيف ان اليأس
حبك ليهوذا الدافع
حبل المشنقة .
بالحقيقة انَّ احبولة
الشيطان غريبة
حتى في هذا الأمر .
لانه عوقب في الحال .
وبدلًا من الاسخريوطي
سأدعو الكيليكي ،
وبدلًا من المحتال
سأدعو الصادق ،
وبدلًا من الدافع
سأدعو بولس ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

٢٢ يا أخلائي الاحباء واخوتي
ادعوكم اخلائي
ولا اسميكم بعد عبيدًا ،
فانتم ابنائي
وارثون معي .
انتم كواكب المسكونة كلها ،
انتم اشعة شمسي المنيرة ،
انتم حرسة امناء
تحرسون مفاتيح كنوزي ،
انتم وسطاء للمواهب
المتدفقة مني
لآدم التائب
انتم اعمدة كنيستي
الذين انتشلتهم
انا من البحر ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

١٢٣ كرزوا بي
في العالم هكذا ،
واظهروا ما انا عليه ؟
واتركوا اذن
الامثال والاحاجي
وقولوا : اني اله ،
اخذت صورة عبد
بطريقة لا تفسر .
بيّنوا كيف اختصصت
لذاتي جراح الجسد طوعاً .
ولو غير مائت ،
بما اني إله ،
فقد اتيت الى الموت
بالجسد .
ولو اني دفنت كمحكوم علي
فقد سبيت الجحيم كسيد ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب .

٢٤ خلصوا العالم اذن
بهذه التعاليم ،
وعمّدوا باسم الآب
والابن والروح القدس .
فتَشجَّع الرسل
بهذه الاقوال
وقالوا للخالق :
انت اله أنت ،
وقبل الدهور
وبغير فناء .
اننا نعرفك
الهاً واحداً
مع ابيك والروح ،
ونكرز بك ، كما أمرت .
فكن انت معنا
ولأجلنا ،
انت العارف وحدك
اسرار القلوب .

ESSAI SUR LA TRIBU DANS LE PROCHE-ORIENT

par

PIERRE RONDOT

Docteur en Droit

L'observateur oriental qui aborde le Proche-Orient est d'emblée frappé par l'abondance, la diversité, l'imbrication des groupements humains. Leurs très nombreux cloisonnements, en effet, se superposent, si l'on peut dire, et divisent la masse humaine, comme par des quadrillages surajoutés selon diverses entités: **tribu, confédération, clan ou faction** (1), **communauté, cité**. Ainsi se trouve offerte une matière très abondante aux études monographiques, qu'il est indispensable d'accumuler tout d'abord, et auxquelles il serait peut-être sage de se borner tant qu'elles n'auront pas été produites en nombre suffisant pour permettre de solides synthèses; mais ce terme est encore très lointain.

Sans attendre qu'il soit échu, cependant, ne serait-il pas possible, ne serait-il pas utile d'esquisser quelques traits généraux de ces phénomènes de cloisonnement, et de chercher à reconnaître et à caractériser quelques-unes de ces entités, **faction, communauté ou tribu?** Ne servirait-il qu'à préciser quelques idées, ou même qu'à faire apparaître les lacunes de notre information, un tel essai vaut peut-être d'être tenté; on nous excusera de le faire ici, et d'en soumettre d'autant plus volontiers les résultats à la critique que nous les savons très incomplets. Nous bornerons, au demeurant, cette tentative à l'esquisse d'une morphologie de la **tribu**; des avis et des réflexions ultérieurs décideront s'il convient de poursuivre cet essai sur d'autres plans.

LE CLOISONNEMENT URBAIN

Il est bon de commencer l'observation du cloisonnement dans le cadre où il est le plus apparent, c'est-à-dire dans celui de la ville. Ici apparaît déjà une particularité de l'Orient: tandis que dans la ville occidentale les compartiments sociaux se font indiscernables, souvent même se dissolvent, ils apparaissent jusque dans la structure matérielle de la ville orientale traditionnelle.

---

(1) Nous empruntons, dans ce sens, le vocable de **faction** à Volney, pour désigner les divisions traditionnelles de nature non tribale, telles que Qaisi et Yemeni dans le monde arabe ancien, Yezbeki et Jumblatti dans le Mont Liban, Mil et Siliv chez les Kurdes, etc. Très différente de celle de tribu, bien que connexe, la notion de faction ou clan n'est nullement envisagée, malgré son importance, dans la présente étude.

Voici la maison sans presque d'issue visible, largement ouverte seulement sur la cour intérieure, si bien faite pour abriter, dirait-on, la famille patriarcale et fermée; le jardin sans perspectives extérieures, clos de hauts murs, l'antique «hortus conclusus»: jardin de Saadi, qui «séduit le cœur», jardin de l'âme, prolongement d'elle-même. Voici, plus vaste et plus complexe, mais à peine moins close, la cellule du foyer religieux: dans la gangue des édifices aveugles, desservie seulement par quelque couloir voûté et coudé, s'ordonne, pareille à un géode ou à une ruche, une petite cité où s'ouvrent les uns sur les autres l'église, la résidence de l'évêque et son divan, la maison du sacristain, le parvis avec son arbre et son puits, l'école, le séminaire. S'il s'agit d'un foyer du culte musulman, il sera moins dérobé, mais l'architecture implicite n'en paraîtra paa différente, avec le sanctuaire, la fontaine, la citerne, les mausolées, la cour où déborde la classe coranique, le terrain vague et l'arc sans emploi, et toutes les chambrettes agrégées des hommes qui animent cet espace. Damas, Istanbul, Jérusalem, Alep offrent encore au voyageur le spectacle de ces alvéoles à demi dérobées, parfois figées et dévastées, parfois vivantes encore, et qui laissent ingénuement apparaître le mécanisme de leur développement sans tentacules que le dehors ne sollicite pas.

Souvent jadis, lorsqu'il s'agissait de cultes minoritaires, les foyers religieux ont formé le centre de quartiers, clos eux aussi de murs et de portes à verrous, qui sauvegardent farouchement leur individualité à l'intérieur de la ville. Mais, tandis que la ruche autour du sanctuaire évoquait retraite et recueillement, c'est ici défense, solidarité de destin qu'il faut penser. Cependant, les correspondances que les formes suggèrent sont-elles toujours vaines? Rien qui soit plus semblable à un monastère, aux cellules ouvertes sur un cloître, que le caravansérail qui littéralement renferme voyageurs et marchands. Et, dans la ville orientale traditionnelle, on sait que la concentration commerciale est de règle: la qisarya groupe étroitement les orfèvres, les joailliers; certes ceci est fait tout d'abord pour la sûreté, mais ce groupement obligé engendre, avec le coude à coude, des complexes d'estime et de défiance, cimente des mœurs et des traditions, forge de puissantes communautés instinctives. Une logique particulière étaye ce groupement topographique par spécialités des artisans et des commerçants, qui surprend l'Occidental attentif surtout aux conditions de la concurrence et féru d'aventure individuelle. Aussi, à l'instar des foyers religieux, les centres commerciaux du vieil Orient, vastes comme l'immense bazar d'Istanbul, ou minuscules comme le souk damascène d'Ali Pacha, ruelle de fruitiers et de gargotiers, vivent-ils de leur vie propre, distincts au premier regard, comme des îles irréductibles au milieu de l'océan urbain.

LE CLOISONNEMENT TRIBAL — LE CONCEPT DE LA TRIBU

La ville rend sensible, de la sorte, l'existence et la vigueur de la cellule orientale. Mais bientôt un œil attentif n'aura plus besoin, pour discerner de pareilles cellules, que quelque chose soit bâti autour d'elles et leur fasse de visibles coquilles. Entre les murs naturels, mais irréguliers, mal définis, des plis de montagne, la tribu kurde est aussi ramassée, aussi cohérente, aussi bien centrée que dans son enceinte de maçonnerie l'antique communauté chrétienne d'Alep. Et dans la steppe apparemment indéfinie, mais jalonnée pour elle de pistes, éclairée de puits, de pâturages, de terres de parcours, la tribu arabe que le nomadisme étale sur des centaines de kilomètres reste à proprement parler rassemblée.

Dès que l'on quitte les villes, l'on s'en avise en effet: l'armature de ces corps sociaux traditionnels est faite moins de murs construits, de carapaces de pierre, que de coutumes, de tendances, de mœurs, de desseins volontaires, mouvants et vivants, réalité intime dont l'architecture n'est que le signe occasionnel. Ces petits mondes sont clos en pensée, en volonté, avant de l'être en figure et en fait. Lorsque d'ailleurs l'homme de tribu bâtit, fût-ce provisoirement, il construit spontanément des cellules visibles tout semblables à celles des villes: campement de nomades

ou village de récents sédentaires, c'est encore le cercle de tentes, le groupement autour du parc et du point d'eau, images spontanées d'un monde suffisant et clos.

De ce rapide inventaire, si incomplet qu'il soit, une notion ressort, celle de clôture. Clôture autour de ceux qui ont les mêmes adversaires, parce qu'ils ont les mêmes intérêts: une identique conception de la vie, les mêmes buts, une préférence instinctive ou nécessaire pour les mêmes moyens d'action. Au delà du fait de la clôture, chercher à reconnaître les raisons qui l'ont suscité, les forces qui le maintiennent, ce sera peut-être une chance de pénétrer dans l'esprit de la tribu.

Définir, s'il se peut, la tribu, constitue l'objectif même du présent essai: mais il nous faut, provisoirement, en retenir ici une notion courante sur laquelle chacun puisse s'accorder, afin qu'il n'y ait point d'ambiguité sur le sujet de cette étude. «La tribu, écrit W. R. Hay à propos des Kurdes de l'Iraq septentrional, est une communauté ou une confédération de communautés qui existe pour la protection de ses membres contre une agression extérieure et pour le maintien des vieilles coutumes raciales et du genre de vie» (2). Groupe humain conscient, cohérent, très individualisé, la tribu apparait bien distincte dans le peuple dont elle fait partie; elle est plus que la famille, moins que la nation. Parmi les entités sociales spontanées de l'Orient, c'est précisément la plus sociale, d'où l'intérêt que peut offrir son étude. A la différence de la communauté et souvent même du quartier, elle n'est pas d'abord religieuse; à la différence de la corporation, elle n'est pas d'abord économique. Elle dépend même relativement peu des conditions physiques: dans son essence, en effet, elle ne diffère guère selon qu'elle est semi-sédentaire en montagne ou nomade en steppe. C'est de l'homme qu'elle dépend: elle est à sa mesure.

L'IDEE DE TRIBU CHEZ L'HOMME DE TRIBU

L'homme de tribu se reconnaît d'emblée à la fierté qu'il tire de cette qualité; il n'est pas de plus sûr critère. W. R. Hay le note très justement: dire que l'on est un homme de tribu, c'est proclamer: «je suis citoyen romain», «civis romanus sum». De nos jours encore, où tant d'entités sociales plus vastes et plus puissantes: la nation, l'Etat, semblent devoir primer la tribu et la priment en effet dans tous les domaines de la vie pratique, le prestige tribal demeure très grand: le bourgeois des villes se pare volontiers d'une ascendance bédouine, goûte la pureté de la langue des nomades, apprécie leur sens de l'honneur, saisit volontiers l'occasion de suivre quelque mode née sous la tente.

Pour que la sensibilité tribale s'impose ainsi au dehors, il faut que l'élément affectif revête, dans la tribu, une importance extrême. L'homme de tribu, en effet, se relie à la tribu par un sentiment que nous qualifierions volontiers de patriotisme tribal pour faire ressortir, par ce terme quelque peu excessif, tout ce qu'il y a là d'instinctif, d'immédiat et de profond. Cet attachement adhère non seulement à des traditions, à des croyances, à des droits qui forment le «patriotisme tribal», il s'accroche aussi à des signes sensibles, à des images. Ainsi l'idée, même controuvée et mythique, que la tribu se fait de son origine, vaut par sa force émotive; l'ancêtre éponyme, le signe (par exemple, le palanquin sacré des émiras Rouallah), le proverbe qui célèbre une vertu de groupe («Cherwan avec son épée, Kherzan avec sa bravoure...», dit-on chez les Kurdes), marquent l'esprit simple et vif des gens de tribu et le déterminent.

Nourrie de la sorte, la conscience de l'appartenance au groupe est très vive chez tous les membres de la tribu. L'exiguité même de cette société, dont la faible extension limite l'horizon propre, favorise cette concentration du sentiment et de la pensée. Aussi chaque tribu est-elle for-

(2) «Two years in Kurdistan», Londres, 1921, page 65.

tement individualisée; elle ne ressemble à aucune autre, elle est irremplaçable; son histoire ou sa légende la distingue très fortement des autres tribus et des groupes sans caractère tribal qui ont cependant en commun avec elle la race, la langue, la religion. Elle se place donc, sans contestation possible, au degré qui lui revient dans la hiérarchie des tribus. La fierté tribale peut pousser, comme la fierté nationale, à la recherche du succès matériel, de la conquête, de la fortune; ces avantages éventuels ne peuvent influer sur la grandeur véritable, classée, de la tribu, grandeur déterminée non par son succès actuel mais par son origine, son honneur antique et ses fastes .Notre ami très regretté, Albert de Boucheman, étudiant les rapports des Maoualis et des Haddidynes (3), a parfaitement évoqué le complexe édifice de préséances, de dépendances, de clientèles tribales, qui demeure ainsi vivant dans les tribus en marge et même en dépit des faits; et il lui a fallu, en vue de rendre compréhensible au lecteur cette structure cependant si familière aux gens de tribu et toute naturelle pour eux, recourir à des représentations graphiques ingénieuses et compliquées.

LES OBJECTIFS DE LA TRIBU

L'objectif essentiel d'un organisme social aussi marqué, ce sera de persévérer dans son être; il n'en saurait aller autrement.

Il lui faut donc organiser la sauvegarde de ses intérêts de groupe, si sensibles à tous, si conscients et immédiats pour tous; en somme, conserver ces biens acquis, objets du patriotisme tribal. La tribu est donc essentiellement traditionnelle et conservatrice.

Pour subsister telle qu'elle désire être, la tribu ne saurait vraiment compter que sur elle-même. Groupe social clos et économie fermée vont de pair; il serait assez vain de rechercher lequel de ces deux éléments, à l'origine, a conditionné l'autre; leur association est immémoriale. D'ailleurs, si cette autarcie primitive n'était pas une nécessité d'ordre nourricier, elle serait vite devenue une obligation de sécurité: comment conserver la jalouse autonomie d'un faible petit groupe, si l'on ne peut tirer du sol même qu'il domine toutes les ressources essentielles? Pâturages d'hiver et d'été, cultures de vallées et alpages, points d'eau, artisanat élémentaire suffisent à presque tous les besoins courants; l'exportation ou la contrebande de quelques produits de choix: chameaux de course, étalons, fins tissus de la steppe, noix de galle et mohair de la montagne, suffisent à permettre les rares importations de luxe nécessaires au prestige des chefs et surtout l'indispensable achat des armes perfectionnées qu'il faut bien acquérir au dehors, seule mais redoutable brèche dans l'autarcie tribale; brèche qui menace, il est vrai, toutes les tribus à peu près également.

Car la défense des intérêts tribaux implique souvent la lutte par les armes. L'honneur, le plus exigeant de ces intérêts, ne se nourrit que de combat; c'est lui, bien davantage que la vulgaire nécessité, qui pousse au rezzou, du moins dans le principe; c'est lui qui entretient d'interminables chaînes de vendettas, car la tribu met en commun l'honneur de chacun des siens: et il n'est point d'affront, point de préjudice, donc point de riposte ni de défense qui ne soient ipso facto affaire de tribu. La tribu est en quelque sorte, si l'on nous permet l'expression, une coopérative de respectabilité et de défense, comme elle est une coopérative de sentiment et de subsistance.

Mais la plus grave menace pour la tribu n'est pas issue des tribus elles-mêmes: les rivalités tribales ont quelque chose de tonique et de bienfaisant. L'adversaire vraiment redoutable, c'est le monde non tribal: c'est le sédentaire décrié, dépourvu aux yeux de l'homme de tribu des

(3) «Revue des Etudes islamiques», Paris, 1934.

qualités viriles, mais qui prend sournoisement l'avantage comme marchand, comme propriétaire foncier, comme prêteur, gens auxquels la difficulté des temps oblige de recourir: c'est l'autorité religieuse, qui modifie l'ordre des valeurs et, partant, parfois bouleverse l'édifice du commandement; c'est l'Etat surtout, qui prétend au pouvoir exclusif et entend assumer la défense de tous les intérêts, mais qui ne saurait comprendre les profonds attachements instinctifs de la tribu et qui désagrège les traditions. Contre de tels adversaires, la meilleure sauvegarde de la tribu, celle qui lui permettra peut-être de survivre moralement, dans quelque mesure, à son écroulement matériel, c'est son prestige.

LES INSTRUMENTS DE LA TRIBU: LA COUTUME, L'AUTORITE

Soutenue par sa fierté et sa volonté d'autonomie, mais servie par des hommes en nombre toujours trop faible et des ressources toujours précaires, la tribu trouve ses instruments propres dans la coutume et l'autorité.

La coutume est l'expression juridique du groupe tribal: à ce titre, elle le caractérise complètement. Sa force est telle que, non seulement elle rend peu concevable toute loi civile extérieure, mais encore qu'elle supplée parfois, dans ses conséquences sociales, la loi religieuse elle-même. Ainsi les tribus assyriennes, chrétiennes, ont-elles pu jadis vivre en symbiose avec des tribus kurdes, musulmanes, tandis que, pour s'insérer dans ce système, le patriarcat nestorien avait dû en quelque sorte se modeler selon le type tribal, et voir l'efficacité de son intervention le céder parfois à celle d'un petit chef de tribu.

Hors du temps de crise, la coutume suffit parfaitement à maintenir l'édifice tribal, au sein duquel le chef fait ordinairement figure de simple arbitre. Mais, la crise étant fréquente dans l'ambiance tribale, la contrainte y apparaît souvent nécessaire; l'organisme tribal ne se concevrait pas sans autorité. Dans une certaine mesure, comme nous avons essayé nous-même de le faire à propos des tribus kurdes (4), on peut envisager l'ensemble des affaires de tribu sous l'angle de l'autorité; cette autorité, toutefois, est originale dans sa source, son caractère, son exercice.

Le commandement de la tribu n'est pas absolument héréditaire: dans la famille que son rang consacre, ou, comme c'était par exemple le cas chez les Assyriens tribaux, dans les familles qui sont appelées à alterner au pouvoir, le chef n'est pas toujours désigné par la primogéniture; il y faut aussi le choix ou du moins le consentement des notables, et sa propre énergie, qui devra éventuellement aller jusqu'à la suppression du frère ou du cousin rival. Tacitement au moins, il faut que le chef soit accepté, et le perpétuel accès direct que les hommes de tribu ont auprès de lui atteste une sorte d'égalité tribale autant qu'il consacre le loyalisme.

Une fois le chef admis, son autorité, normalement limitée à l'arbitrage selon la coutume, n'a plus en temps de crise d'autre borne que ce consentement tacite. C'est dire qu'un chef ne peut qu'être fidèle à l'idéal tribal et ne peut qu'être efficace: sinon, il cesse de soutenir son personnage, et bientôt il n'est plus. C'est dire aussi que du style du chef, de son caractère, dépend le prestige de la tribu et le degré de sa survie: elle s'effrite si le chef médiocre est justement contesté par des rivaux; elle amalgame, au contraire, des groupes voisins, si le chef est assez adroit et assez fort pour les attirer dans son orbite.

---

(4) «Bulletin d'Etudes orientales» de l'Institut Français de Damas, tome VI, Le Caire, 1937.

ESSAI D'UNE DEFINITION DE LA TRIBU

Au terme de cette rapide analyse, on souhaiterait ramasser en quelques lignes concises une description de la tribu, aussi proche que possible de la définition de son type.

La tribu, pourrait-on dire, est un groupement humain spontané, disposant accessoirement d'une assiette territoriale; c'est un organisme fortement individualisé, inspirant à ses membres un vif attachement sensible et le sentiment d'une supériorité spécifique, reconnue parmi les groupements non tribaux; tendant fortement à persévérer dans son être, elle a vocation de garder les traditions, les modes ancestraux de vie, l'honneur de chacun et de tous, les intérêts communs; elle recherche sa survie par l'autarcie et la défense coopérative; méfiante envers l'étranger comme envers l'innovation, elle se réalise juridiquement par la coutume et se gouverne par une autorité de nature et de choix spécial, qui tend à exclure toute autre autorité.

Est-il besoin d'ajouter que, dans le monde moderne, nul organisme ne saurait subsister qui réponde entièrement à toutes ces caractéristiques? Mais dans l'Orient beaucoup de groupes humains placent encore, plus ou moins consciemment, l'un ou l'autre de ces traits au premier rang de leurs idéaux. Mieux encore, bien des groupements dont l'origine, tout à fait moderne, n'a rien à voir avec les tribus, empruntent aux vieilles conceptions tribales des éléments qui, adaptés à leurs nécessités propres, concourrent à leur force, à leur durée, à leur prestige. Si la tribu à l'état pur, la tribu traditionnelle est du passé, cent formes **pseudo-tribales, paratribales**, sont bien vivantes et prolifèrent; elles s'imposent quotidiennement à l'attention du sociologue et, requérant de lui la connaissance de **la tribu «en soi»**, confèrent un intérêt permanent à l'étude de ce qui subsiste encore des tribus traditionnelles.

اخبار العالم

اخبار دينية

المؤتمر القرباني الدولي الخامس والثلاثون : أحتُفل بهذا المؤتمر في مدينة برشلونة (اسبانيا) وكان افتتاحه في اليوم السابع والعشرين من ايار المنصرم واختُتم احد العنصرة في اليوم الاول من حزيران بتطواف مهيب وخطاب اذاعه من محطة الڤاتيكان قداسة البابا بيوس الثاني عشر . وقد ترأس المؤتمر ممثلًا الحبر الاعظم نيافة الكردينال فديركو تددسكيني وحضره من الكرادلة ستة عشرومن الاساقفة ثلاثمئة وعدد غفيرمن الزوّار ينيف على الثلاثمئة وثمانين الفاً . دارت ابحاث المؤتمر حول هذا الموضوع : الاوخارستيا والسلام .

آخر حفلات المؤتمر جرت وسط ميدان جبل خوميش في ٣١ ايار السبت امس يوم اختتام المؤتمر وقد كانت اكثرها تأثيرًا وهي فريدة من نوعها الى اليوم في المؤتمرات القربانية بل وفي تاريخ الكنيسة وهي سيامة ثمانمائة كاهن : اسبانيين وفرنسيين وارجنتيين وصينيين وبيروويين : قام بها في الوقت عينه واحد وعشرون اسقفاً ثم قدّموا معاً ذبيحة الاوخارستيا وبصوت واحد تلفظوا بالفاظ الكلام الجوهري .

المرسلون في سجون الصين : من ١ كانون الثاني سنة ١٩٥١ الى ١٧ نيسان ١٩٥٢ بلغ عدد المرسلين الذين طُردوا من الصين او أضطروا الى مغادرتها الفاً وسبعمئة وثلاثةوستين . فلم يبق اذ ذاك في الصين الا الف واربعمئة وخمسة وثلاثون مرسلًا منهم الف وثمانية عشر اسقفاً وكاهناً وثلاثمئة واثنتان وستون راهبة ومن الاخوة خمسة وخمسون . من هؤلاء المرسلين مئة وخمسة واربعون هم في السجون اي سبعة عشر اسقفاً ومئة وسبعة كهنة وسبع عَشرة راهبة واربعة اخوة . كذلك يوجد في السجون من الاكليروس الصيني اسقفان ومئتان وعشرون كاهناً .

اليابان والكرسي الرسولي : في ٢٨ نيسان يوم بدأ تنفيذ معاهدة الصلح مع الحلفاء اقامت اليابان علاقات رسمية مع الكرسي الرسولي فعينت ممثلًا لها لديه الدكتور اوغوستان ساهيد كانایاما . اما ممثلها لديه قبل الحرب الاخيرة من سنة ١٩٤٢ الى ١٩٤٥ فلم تكن له صفة رسمية لكنه كان ممثلًا خصوصياً لا غير .

اخبار عالمية

المانيا الغربية : منذ ٢٧ ايار انتهى فيها مبدئيًا نظام الاحتلال بعد توقيع اتفاقها مع الدول الغربية . وقد اثار غضبَ الاتحاد السوفياتي اشتراكُها في معاهدة التحالف الدفاعي

وتوقيعها اياه في باريس مع فرنسا وهولاندا وبلجيكا واللوكسمبورغ . وقد اظهرت روسيا استياءها بتدابير عنيفة عدائية اتخذتها في برلين خصوصاً ازاء الدول الغربية .

تريستا : سلم الحلفاء رسمياً الى ايطاليا ادارة احدى منطقتي تريستا التي كانت مباشرة تحت ادارتهم وقد فعلوا ذلك دون مشاورة الحكومة اليوغوسلافية . فلساءت تيتو من هذا الامر وأخذ هو ايضاً يشدد سلطته في المنطقة الثانية منها وقد اعلن بانه يعتبر اتفاق لندرة بهذا الخصوص غير شرعي .

عمان : ان مرض الملك طلال – حقيقياً كان او مزعوماً – وذهابه الفجائي الى اوروبا قد اوجدا في عمان وفي الشرق كله ارتباكاً شديداً بل ازمة خطيرة خصوصاً من سبب تدخل الحكومة العراقية في شؤون بلاده تدخلاً آداب الدول العربية واسرائيل نفسها . لكن حكومة عمان قد اظهرت تجاه المستفعين حزماً وثباتاً اعادا نوعاً ما الطمأنينة والثقة .

سوريا : في ٢٢ ايار تحدث العقيد الشيشكلي عن انشاء حزب واحد في سوريا سماه الحزب التقدمي . ثم انه اعلن بان الحكومة القائمة اليوم سوف تبقى في الحكم الى ان تعطي البلاد نظاماً جمهورياً وطنياً صحيحاً . وقال ايضاً بان اهتمام الحكومة الحاضرة هو ايجاد الاموال الضرورية لانماء الجيش السوري وتقويته وفتح مدارس جديدة والعناية الجدية في تقدم الزراعة والتجارة والصناعة .

– منذ ٩ حزيران أنشئت في سوريا وزارة بستة اعضاء يرئسها الزعيم سلو وقد اختارهم من الرجال الذين لم يلعبوا الى اليوم في البلاد دوراً سياسياً وهم من اصحاب الاختصاص .

اسرائيل . حسب الاحصاء الاخير للسنة الماضية بلغ عدد سكان اسرائيل في اوائل كانون الثاني ١٩٥٢ مليوناً وخمسمئة وستة وسبعين الفاً . منهم مليون واربعمئة وخمسة آلاف يهودي . والباقون مئة وثلاثة وسبعون الفاً غير يهودي ، تسعة وستون بالمئة منهم مسلمون . ولا يزال عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين يزداد دون انقطاع رغماً عن الازمة الاقتصادية المتمكنة هناك .

– يوجد اليوم في العالم من اليهود احد عشر مليوناً يعيش ثلاثة وخمسون بالمئة منهم في الاميركتين وثلاثة وعشرون بالمئة في اوروبا والباقون في اسرائيل .

المعضلة المصرية الانكليزية : رغم توقف المحادثات المصرية الانكليزية بخصوص الخلاف المستحكم بين الحكومتين يظهر لمتتبع الامور ان مسألة القناة قد توصلت الى حل مبدئي يرضي الطرفين . بقيت اذن مشكلة السودان وهي صعبة جداً . فان انكلترا لا تقبل بمساس الاستقلال الذي اقرته للسودان بملء رضاها . لكنها الآن قد تركت للحكومة المصرية معالجة الامور مباشرة مع السودانيين فاذا تم اتفاق بينهما عادت فنظرت فيه معها .

فاجابة الى طلب من الحكومة المصرية قدم الى القاهرة من الخرطوم في ٢٩ ايار مندوبون من السودان يمثلون حزب الاستقلال في بلادهم وبعد محادثات عديدة عادوا الى السودان دون ان يرتبطوا مع محادثيهم باي عهد كان .

مطبوعات شرقية

الكتاب المقدس

العهد العتيق والعهد الجديد

المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥١

قاموس افرنسي — عربي

يوحنا باتيست بلّو

اشرف على تجديد طبعه الاب رفائيل نخله اليسوعي — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٣

ما برحت المطبعة الكاثوليكية تواصل ما درجت عليه من تقاليد حميدة في سبيل خدمة العلماء. ذرائع العمل التي لا مندوحة عنها وتخرجها على خير ما يُرام .

فهذه التوراة بقطعها الصغير الحجم والتي بالاستطاعة استخدامها بكل سهولة ليست الّا تلك الطبعة الكبيرة المشهورة . — لقد رغبت المطبعة الكاثوليكية بان تضع في متناول الجمهور كتاب كلمة الله سدًّا لثلمة جهلنا اسس الدين فاخرجته على ورق رقيق وبحرف واضح اخراجاً يستهوي القارئ ويسهّل عليه مطالعته . — ولقد كان يشوقنا ان لا تكون سطور هذا الكتاب متلازّة كما هي عليه وان يكون اشدّ تبويباً في تقسيمه ، تشجيعاً للقارئ على مواصلة دراسته .

اما معجم بلّو فالامر فيه على العكس . فهو كما يبدو بقطعه الكبير وحجمه الذي زيد زيادة ملحوظة بعد ان اعيد فيه النظر وضُمّت اليه مفردات علمية كثيرة قد اصبح متعة للعالم اذا ما تصفّحه ومعيناً للطالب لا تنضب فوائده اذ يجعله يألف المفردات العربية وما يقابلها بالفرنسية ، تلك المفردات التي ربّما خيّل اليه انه لا وجود لها .

اجل لقد خطا معجم بلّو في هذا المضمار خطوات واسعة وبات شديد الجدوى للكثيرين وذريعة من افضل ذرائع العمل التي لا يستغنى عنها .

ومما لا ريب فيه ان اعادة النظر في هذا المعجم قد كلفت صاحبها مجهودات شاقة ولكن هذا العمل قد عوّض على المنقّح بدل الاتعاب التي كابدها بما

اشتمل عليه من مفردات جمعها من معاجم شتيتة واستقاها من مجلّات علمية عديدة.

وربّما ادّى اختيار المؤلف لمفردة واحدة من بين عدة مترادفات الى ايجاد ضرب من التوحيد العلمي لفروع عديدة .

ولكننا نجهل السبب الذي من اجله لم تجد العبارات الفلسفية مقاما في هذا المعجم وزد على ذلك فقد كان بوسع المنقّح ان يبذل بعض مجهودات اضافية لايجاد مفردات بسيطة لترجمة الكلمات الفرنسية . فقد استخدم في بعض المواضع عبارات ثقيلة من المؤكد انها لا تفيد لا العلماء ولا الطلاب ، وثمة ايضاً اخطاء كثيرة في نوعية المفردات وهي واضحة كما ان هناك تراكيب افرنسية خاطئة .

ولا شك في ان الشوايب الاخرى التي نستطيع الالماع اليها ستنقّح في الطبعة الثانية .

ومهما يكن من امر فان هذه الشوايب لن تقلل من قيمة المعجم واذا ما نقدناها فلكوننا نودّ نجاح هذا العمل وذلك ما اهاب بنا الى الاشارة اليها .

يباع هذان الكتابان في المكتبة الشرقية ساحة النجمة بيروت

ا . خ .

مجلة الحوليات الاثرية السورية

تبحث في اثار سورية وتاريخها

تصدرها مديرية الاثار العامة – دمشق – سورية . المجلد الاول ١٩٥١

الجزء الاول ، مطبعة الترقي . ١٧٦ صفحة عربية ؛ ١٤٤ صفحة افرنسية

يلذ لنا ان نقدم للجمهور الجزء الاول من مجلة الحوليات الاثرية السورية . فاخراج هذه المجلة الذي لا غبار عليه ودقة تحليلها وكفاءة كتبتها تجعلها بين افضل المجلات من نوعها في العالم المثقف . اما افقها الفسيح فيفتح امامنا باب الامل لنرى فيها اداة ثقافية فضلى .

وشاء كتبتها ان يقدّموا لنا لمحة على علم الاثار السورية منذ البدء الى ايامنا الحالية وليس ذلك كثيرًا على مؤلفين اشتهرت اسماؤهم في هذا المضمار من العلم . وسيصير بالامكان الان العودة الى معالجة دروس اشدّ دقة في قرون اخصب

من غيرها من القرون الماضية بالاثار في سورية التي مرت فوق ارضها جيوش امم شتيتة الاجناس .

ومما يجدر بلفت النظر ان نشر المقالات بعدة لغات مما يسهل على هـذه المجلة ولوج مكتبات الاستشراق .

واننا نلمع فيما يلي الى اسماء الكتبة الذين ساهموا في اخراج هذا الكتاب النفيس :

اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق للدكتور سليم عادل عبد الحق
تدمر والشرق لهنري سيريغ
الحفريات الاثرية في سورية خلال نصف قرن للامير جعفر الحسني
التنقيب عن آثار اليمن للدكتور كامل عياد
الخطط والآثار في بعض بلاد الشام للاستاذ وصفي زكريا
عناصر السكان في انطاكية في العصر الكنسي للدكتور جورج حداد
طعام الموتى والوليمة الجنازية في تدمر لهنري سيريغ
الخانوقة ، تمهيد جغرافي تاريخي لموقع حلبية لج. لوفري
المعبد السوري في ديلوس لارنست ويل
تحريات اثرية عن عصور ما قبل التاريخ في القلمون للاب جوزيف نصرالله

مع ما هناك من لمحات اجمالية على الحفريات في مناطق شتى من سورية ولوحات تبرز للناظر الثروة العظيمة المكتشفة . ا. ع. خليفه

تاريخ الادب العربي

تأليف حنا الفاخوري

المطبعة البولسية . حريصا . لبنان ١٩٥١

الكتاب الذي نطالع به القارئ مجموعة يرتاح اليهـا الناقد ويلتذ بها القارئ . لان الاسلوب الذي انتهجه المؤلف يحملنا على الاعتقاد انه اطلع على المظان ومن ثم اضفى عليها من غزارة علمه الواسع منبسط موضوعاته على نمط واحد من النظام وعالجها بنظر ثاقب ومن دون تسرع .

وافضت بنا تحليلاته النفسانية العميقة التي تصدى لها لنطلع على نفسية الشعراء والكتاب وميزات انشائهم واسلوبهم الخاص بهم . امّا اذا ما اعتور تفاصيل هذه الدراسات المختلفة بعض الغموض فذلك لا مندوحة عنه . وفي

معرض ايضاحنا لهذا المؤلف لا يسعنا الّا نقول فيه انه كتاب اخلق بالاستاذ منه بالطالب وان قامت رغبتنا على ان نرى المصنِّف يتوسع في دراسته بعض الادباء – كابن خلدون وصاحب الاغاني مثلًا – توسّعه في دراسة غيرهما لانهما خليقان بان يكونا موضوع بحث اشد تعمقاً . اما الموضوعات التي ذيّل بها كل باب من ابوابه فرائدها ان يستفيد الطالب من هذا الكتاب الجزيل النفع فائدة ترسخ في عقله . اما الرسوم التي تزين صفحاته فقد جاءت تزيد في جمال النص وتبعث الراحة للعين .

ومهما يكن من امر فلا يسعنا الّا تشجيع المؤلف على مواصلة اتحافنا بآثاره التي قلنا انها ان دلّت على شيء فانها تدلّ على غزارة علمه وتضلّعه من مظان الادب العربي . ا . ع . خليفه

الخلاصة في الادب العربي

تأليف حنا الفاخوري

فنون ادبية ، تاريخ ، بيان ، عروض ، وفقاً لمنهج الشهادة التكميلية الجديد . المطبعة البولسية . حريصا . لبنان ١٩٥٢

يبدو لنا ان هذا الكتاب الجديد قد جاء محاكياً عقلية الطالب ونفسيته . اما ما فيه من افكار وطريقة علمية فمن الطراز المعلم . ولقد حذف المؤلف عددًا غير يسير من التوسيعات التي قد تكون زادت في الغموض . ولهذا فعلى كل طالب ان يقتني هذا الكتاب فيكون مدربه في التفتيش وفي الكشف عن ثروة طالما بقيت بعيدة عن فهمه . واذا اجتهد ودرس المواضيع التي تكرّم بها عليه المؤلف فيكون انتفع من هذا الكتاب وزادت رغبته في اقتناء المجلد الواسع الذي درسناه فيما سبق . اذ لا يعرف الادب العربي الّا من درسه عن كثب . ا . خ

شوقي

تأليف عمر فروخ

الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥١ ...

هو كتيّب من سلسلة كتب ... هو في الواقع دراسة مفصّلة للشاعر

الكبير لا ينقصها لا الاتزان ولا الصحة لتضع حداً فاصلاً للانتقادات التي تعرض لها الشاعر .

وفي جميع الاقوال المفصّلة التي ذكرها بحق الشاعر نستشف العطف الذي يكنّه المؤلف له. اما مظهر دراسته العام فمدعاة لارتياحنا اليه وان لم يمنعه هذا العطف عن ان يبين في فصوله المتتالية التي تتناول كل مآثر شوقي (دينه ونثره ومسرحه) ونقاط الضعف عنده والنقاط التي ستستمر على مجرى العصور لتصبح خالدة مألوفة .

ا.خ

الفارابيان ــ الفارابي وابن سينا

تأليف عمر فروخ

الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٠

لا تختلف ميزات هذه الدراسة التاريخية الصغيرة عن ميزات الدراسة السابقة من حيث الضبط والدقة والوضوح وصحة النظر وحقيقة المقارنة . فالكاتب بعد ان مهّد مطالباً باقامة احتفالات للفارابي لا تقل ابهة عن الاحتفالات التي اقيمت هذه السنة لابن سينا شرع بدراسة الفيلسوفين .

وبعد ان فصّل المؤلف كل مظاهر غنى الفكر وبيّن خصائص كل شكل من اشكالها جعل كلًا من الفيلسوفين في حيّزه . اما النتيجة فقررت ما بينهما من تفاوت وتقارب .

وقد كان يشوقنا ان يتوسع المؤلف توسعاً زائداً في بعض النقاط التي دافع عنها « كالحكمة المشرقية » عند ابن سينا .

وثمة امور ما برحت معلقة تتابع على ذكرها المؤلفون ولم يمسّوا منها جوهر المعضلة .

وعلى كل لا مندوحة لنا عن الاعتراف للسيد فروخ بانه استطاع ان يجعل غوامض الفلسفة بلغة في متناول الطلاب .

ا.خ

تراث مصر في الحضارة الاسلامية

تأليف عبد الرحمن زكي

دار النيل للطباعة، ١٩٥١، ٤٦٢ ص

عرف الكاتب ان يتحفنا في بضع صفحات بلوحة اشتملت على القسط الاوفر مما قدمته مصر للثقافة والادب الاسلاميين . ولا نستطيع ان نطلب من المؤلف ان يسدينا دراسة جامعة شاملة من جراء عمله الذي ليس الا ذكرى مقتضبة فقط وان كان جوهرياً بالنسبة الى الاديب الذي درسه من جميع النواحي بميزاته الاشد بروزاً . اما هذه النواحي فهي التي كان فيها للادباء المصريي الاصل القدح المعلّى وهم كثر .

ولقد كنّا نروم ان تكون اشارته الى المراجع اكمل مما هي لتكون فائدتنا من دراسة اوفى كما كان يشوقنا ان يستوفي بحثه في بعض النواحي استيفاء اوسع فيشير الى التأثير المسيحي وتأثير الادباء المسيحيين المصريين . افلم يخدم الاسلام في تطوره وازدهاره جميع اولئك المصريين القدامى واولئك الرهبان الذين كتبوا وكتبوا كثيراً وكل اولئك الاقباط الذين احدثوا مصر وافرغوا وجيها في قالبه . ومهما يكن من امر فان هذا الكتيب لمفخرة لمؤلفه .

ا.خ

خزائن الكتب العربية في الخافقين

تأليف الفيكنت دي طرازي مؤسس دار الكتب اللبنانية

المجلد الرابع . طبعته لجنة تكريم المؤلف

لقد وصلنا الجزء الرابع من تاريخ المكتبات العربية في العالم وهو يشتمل على قسمين يتحدث اولهما تارة باخلاص وطوراً بحضض عن تاريخ مكتبة بيروت الوطنية وما رافقها من تقلّبات وذلك منذ عهد تأسيسها الذي كابد في سبيلها الفيكنت النفقات الطائلة والرحلات الشاقة ليقدم لبلاده مركزاً لاستكفاء اعمالها ويخدم وطنه لبنان خدمة ثقافية واخلاقية تقدمية .

. وما قاله لنا المؤلف ان مجهوداته لم تلاقِ دائماً المكافأة من الذين كان عليهم ان يكللوها بيد انه لا يجهل ابداً ان غمر الخلق يقوم على راحة الضمير الباطنية لكونه خدم وطنه خدمة نصوحاً وبدون انقطاع . اما القسم الثاني فيتناول مجموعة الاعمال التي أُثير اليها في اثناء الاحتفال الذي اقيم على شرفه وقد اصاب كل ما قيل فيه كبد الحقيقة واستحقه صاحبه كل الاستحقاق

ا . خ

الموارنة في لبنان • اقدميتهم واسرهم

ملاحظات على كتاب « اصدق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة من اخبار السريان » للفيكنت فيليب دي طرازي

تأليف الخوراسقف بولس قرألي

مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونيه ، ١٩٤٩

ويليها نبذتان خطيتان للبطريرك اسطفان الدويهي ، ١٦٩ ص

يشتمل كتاب المؤلف على قسمين يجيب في الاول منهما جواباً قاسياً على مؤلف الفيكنت دي طرازي وهو حديد الانشاء مع انه هادئ الافكار . اما حدة انشائه فجواب على لغة الفيكنت التي لا تخلو في دورها من الحدة .

وما كان اشدنا رغبة في ان تظل هذه المناقشة ضمن نطاق تبادل الاراء الودي الاخوي . فالبحوث التاريخية حول اصل الموارنة ينبغي لها ان تعرض كحقيقة لا تفتقر الى ثورة الحمية للاعراب عنها .

ولقد كان على الاراء المعارضة ان تنهج الطريقة نفسها اذ كلنا يدأب في السعي وراء الحقيقة فلذلك علينا ان توحّدنا المحبة .

اما القسم الثاني فيحوي وثيقتين للبطريرك الدويهي بشأن زعماء لبنان الشمالي وبشأن اليعاقبة في لبنان ولم ينشرا .

وقيمة بحوث المؤلف التاريخية لا تحتاج الى تأييد فلذلك نقبل على مطالعتها بلهفة كبرى ، فهو عالم ثقة بما يقول يتحفنا بحجج الكفؤ في الموضوعات الشتيتة . اما تعليقاته على النصوص التي ينشرها فتؤلف احياناً مقايسات مفيدة تلقي في الذهن امورًا كثيرة .

ا . خ

جولة في دور الكتب الاميركية

مطبعة الرابطة ، بنداد ، ١٩٥١ — ١١١ ص

المخطوطات العربية في دور الكتب الاميركية

مطبعة الرابطة ، بنداد ، ١٩٥١ — ٤٥ ص

تأليف كوركيس عواد

هما كتيبان يتم احدهما الآخر قصّ علينا فيهما المؤلف الجولة التي قام بها لزيارة مكتبات اميركا ولم يكتم الدهشة التي عرته حيال الكنوز التي تشتمل عليها تلك المكتبات .

ولقد عرّفنا المؤلف الى جميع محافظيها الذين صادفهم والى كل عمالها المعنين بآثار الشرق والمخطوطات القديمة . وتصدّى الى المقارنة بين مكتبات تلك البلاد الكبرى ومكتبة بغداد الوطنية وبيّن مدى التقدم العظيم الذي عرف الاميركيون ان يحققوه للعلم والفنون من جرّاء انشاء هذه الردهات الفسيحة للعمل .

ولقد كنا نود لو ان المؤلف اشار من وقت الى آخر بثبت ابجدي الى بعض المخطوطات الموجودة في مكتبات العالم الاخرى التي لا دليل كبير يعرفنا اليها كل المعرفة .

ومهما يكن من امر فالكتيبان على ما هما عليه يسديانِنا خدمة جلى لتحقيق بعض المخطوطات . ا.خ

مسألة المسائل في لبنان : مسألة الاحوال الشخصية

بقلم الخوري منصور عواد

بيروت ١٩٥٢ - مطبعة النسر — ٦١ ص

هذا الكتاب هو مجموعة تلك المشادات التي اثارت الرأي العام اللبناني واستفزته في غضون الشهرين الاولين من السنة الحالية ١٩٥٢ .

وبالاستناد الى السلطة التي خوّلها رؤوساء مختلف الطوائف المسيحية والطائفة الاسرائيلية للاب منصور عواد سرد تاريخ هذه القضية وفنّد اقوال المحامين المتطرفة والخاطئة احياناً وطالب بمساواة جميع ابناء البلاد الواحدة تجاه القانون.

ولنا من شهرة المؤلف الواسعة في هذا الباب الذي انعكف على دراسته ما

يغنينا على التعريف به فلذلك لا يسعنا الّا ان نحض الجمهور على مطالعة كتابه المشحون بالوقائع والجزيل الفائدة . ا.خ

Exercices d'arabe classique, seconde édition revue et corrigée par R. BLACHÈRE et MARIE CECCALDI. — Adrien-Maisonneuve, Paris, 1952, 174 pp.

لسنا نجهل دقة الطريقة التي ينتهجها السيد رجيس بلاشير . فكتيب التمارين الذي وضع تصميه كما يقول – والكتاب في تصميه – سيؤدي خدمات جلّى لطلاب اللغة العربية لان النصوص التي اختارها وراعى فيها التدرج من السهل الى الصعب ليعوّد المتمرن صعوبة اللغة توضح القواعد الصرفية والنحوية .

ولا تقتصر فائدة هذه التمارين على هذه الناحية فقط بل تؤهل الدارس الذي يودّ ان يكتب في المستقبل لتفهّم حتى الجملة العربية . ا.خ

JACQUES CAILLÉ, *La ville de Rabat, jusqu'au protectorat français, histoire et archéologie*. In 4°. — I, texte, 596 pp., avec un index des mouvements étudiés, un index des noms propres et une bibliographie ; II, plan et dessins, 12 pp., 187 pl. ou fig. ; III, phototypies, 12 pp., 180 pl. — Publications de l'Institut des hautes Études Marocaines, tome XLIV, Vanoest, Paris, 1949.

ليس لنا من الكفاءة ما يخولنا ان نحكم على هذا المؤلف الكبير الذي اطراه الاختصاصيون بتقاريرهم الرائعة . واننا نود بعد تهنئة السيد كايه على مأثرته الجديدة وشكر السيد هنري تيراس على هديتها السخية ان نشير في هذه الاسطر الوجيزة الى بعض ما يحويه هذا الكتاب من غزارة علم كان لها تأثير عميق في نفسنا .

اجل ان المؤلف لم يقتصر على الوقوف عند حد الوصف والاستفاضة في دراسة الابنية الاثرية ولا سيما البناءان الشهيران قصبة اوديا (Quasba Oudaïa) ومسجد حسن وبرجه في صفحات خاطفة بل ارجع الحياة الى هذه الاثار ودبها في سكانها وبعثها في دور القناصل والتجار الاوروبيين في مراحل تحولها وتطورها وخصص فصلاً بهذا الشكل الجديد من الجهاد الذي هو حرب «السباق»

ولقد عكف السيد كايه منذ عهد بعيد وهو الحائز على لقب دكتور في الاداب والحقوق ومدير الدروس في معهد الدراسات العليا المراكشي على تاريخ مراكش الموجز والمفصّل وعلى استقرار كل القصص التاريخية التي تتصل عن

بعد او عن كثب بالبلاد التي تبنأها فدرس الاثار المنقوشة على الاحجار او المخطوطة على ورق البردي بدقة العالم المخلص وبروح الانسانية .

ولا يسعنا الّا الاعجاب بمقالاته ودراساته العديدة التي خصها بموضوع واحد وبمؤلفاته التي نسج يراعه بردتها وبحوثه . ولقد اكمل معلوماته الشخصية الواسعة هذه بمعلومات زملائه الفرنسيين المراكشيين في معهد رباط والقى بخاصة ضوءا على الدور الذي قام به السلطانان المنشئان عبد المأمون وابو يوسف يعقوب المنصور في تحوّل هذا المعقل (الذي استمدت رباط اسمها منه[1]) الى مدينة الموحّدين الكبرى .

ورباط المدينة بوجودها وبقائها الى التاريخ اكثر منها الى الجغرافية والقائمة على اتصال بمراكش الجنوبية ومراكش الشمالية الى جانب الدار البيضاء المركز الاقتصادي الذي يحتك بغرنسا اكثر من احتكاكه بفاس او مراكش قد تراءت سنة ١٩١٢ للجنرال ليوتي ان تصبح عاصمة مراكش الادارية وعاصمة الامبراطورية الشريفية المتجددة المستحدثة . ه.ش

H. Serouya. *Maïmonide*, sa vie, son œuvre, sa philosophie. Paris 1951. Presses univ. de France . 152 pp. 12 × 18 cm.

موسى بن ميمون

تأليف ه. سرويا

يؤلف هذا الكتاب عن موسى بن ميمون حلقة من السلسلة الفرنسية المسماة «الفلاسفة» والتي ظهرت حديثاً تحت اشراف اميل براهيه (E. Bréhier) الغرض منها تعريف الجمهور بكبار المفكرين، وذلك بترجمة لحياتهم ومؤلفاتهم واثرهم في تاريخ الحضارة تكون في غاية الايجاز والدقة معاً ثم ترفق بمنتخبات من خير ما صنفوا وخلفوا بحيث يتاح للقارئ المتسرع ان يكوّن لنفسه فكرة صحيحة وان مقتضبة عنهم : وهذا ما نرى المؤلف حققه هنا فذكر في فصل اول اهم مراحل حياة ميمون ، مولده في قرطبه في سنة ١١٣٥ واعتناقه الاسلام تقية ثم نزوحه الى المغرب فمصر حيث اقام حتى وفاته سنة ١٢٠٤ ونال في مصر مكانة

١) الرباط او الرابطة: هو بيت للدين يحتزل فيه المسلمون للصلاة ويتأهبون به للجهاد .

عالية في الدين والطب والفلسفة ودخل في خدمة الايوبيين الذين مكنوه بما كان لهم من السماحة من الجهر بدينه العبراني دونما خشية على حياته حتى بعد ان رماه صديق قديم له بالردة لان وزير صلاح الدين الفاضل – طبق عليه حكم العدالة والقرآن القائل بان لا اكراه في الدين . وفي فصل ثان سرد لمؤلفاته وتحليل لها يبين ما كان لابن ميمون من الفضل على ملته في الحقل الديني لانه بسّط التلمود وتعاليقه العويصة في موجزات وافية ووضع قانونًا مختصرًا للايمان في ١٣ بندًا اعتمده مجمل اليهود فيما بعد دستورًا لهم . ويدرس المؤلف بشيء من التوسع كتابه الشهير « دلالة الحائرين » الذين حاول ابن ميمون ان يجمع فيه بين الدين والفلسفة متأثرًا بالتوراة وبارسطو عن طريق فلاسفة العرب . ومعلوم انه كان لهذا الكتاب شهرة وفائدة حتى ان القديس توما قد اطلع على شيء منه في ترجمة لاتينية . وقد يكون استفاد منه كما استفاد من محك يساعد على شحذ الذهن وجلو الافكار لا اكثر . ونجد بعد ذلك ثبتًا لمؤلفات ابن ميمون التسعة عشر ومنتخبات تملأ نصف الكتاب، نخص بالذكر منها ما يبحث في النبوة وضرورة صفاء المخيلة . شأنه في ذلك شأن فلاسفة الاسلام .

ي . ع .

EDMOND MAOUAD. - *De l'image et de l'acte*. introduction aux problème de la pensée. — Beyrouth, 1952, 145 pp.

ينقسم هذا الكتيب الآخذة افكاره بعضها برقاب بعض الى قسمين وتوطئة ويحملنا على ان نتوسم في مؤلفه ثمارًا جديدة من نبات عبقريته الفذة .

حاول المؤلف ايجاد فلسفة كاملة للصورة والفعل لدى شتى الادباء على تنوع عقليتهم وانشائهم فلم يخطئه التوفيق .

ولقد توصل الى الايغال الى اعماق الشعور الانساني الى هذا الوجود الذي لم يبرح في نظره سرًا مغلقًا لا يسبر له غور وذلك بتحليله جميع العناصر التي تكوّن صورة المدركات في باطننا

والقسم الاول من كتيبه قد ختمه بهذه العبارة التي لا تخلو من بعض

التشاؤوم : «الانسان يحمل معضلة لن يحلها وهو كالنبي المقتنع برسالة لن يقدر لها النجاح » ص ٩٢ .

وبكل دقة وفي استيفائه بحث هذه المعضلة عمد في القسم الثاني الى تحليل الصورة في تحققها بيد اننا كنا نود ان نرى في هذا القسم تصميماً اجمع واشمل واشد اتباعاً ، اما ما اشتمل عليه الكتاب وان عكس قليلاً من الفلسفة الحديثة وربما كان من دون استشعار المؤلف فانه لا يخرج عن كونه مفيداً ويحدو الفكر على متابعة مختلف ضروب تحليلات المؤلف .

وقصارانا اننا كنا نتوقع نتيجة يوضح فيها المؤلف غاية بحوثه وربما المنطق لتوسيع فكرته . ا . خ

اهدت مديرية المعارف والثقافة في تطوان (المراكش الاسبانية) الى ادارة هذه المجلة الكتب التالية اسماؤها :

مجموعة القوانين المغربية ، تعريب موسى عبود

الكوميدية الكلاسيكية الاسبانية وطيرسو دي مولينا لنجيب ابي ملهم . مطبعة المخزن . تطوان ١٩٤٩

سرفانطيس امير الادب الاسباني لنجيب ابو ملهم وموسى عبود . مطبعة المخزن . تطوان ١٩٤٧

رابطة المصالح لخستو بنافنتي . مطبعة المخزن . تطوان ١٩٥٠

سيرة الشاطر تعريب موسى عبود . مطبعة المخزن . تطوان ١٩٥٠

واحة الفكر . عبدالله كنون . تطوان ١٩٤٨

ذكريات مشاهير رجال المغرب (١٤ جزءا) معهد مولاي الحسن . لعبدالله كنون . تطوان

عبد الرحيم جبور : حياة الصوفي التطاوني الشريف السيدي عبد السلام ابن ريسون وكراماته . دار الطباعة . تطوان

خوليو كولا البريك : امام الذكرى المئوية السابعة لوفاة ابن البيطار . مطبعة كريماديس . تطوان ١٩٤٨

ضون انخل كنثالث بلنسيا ١٨٨٩-١٩٤٩ . دار النشر المغربية . تطوان ١٩٥٠

دراسة سلالات شمال افريقيا . مطبعة بوسكا المراكش ، تطوان ١٩٤٨

بنو عباد باشبيلية . عبد السلام احمد الطود . مطبعة كريماديس ، تطوان ١٩٤٦

دليل مؤرخ المغرب الاقصى . عبد السلام بن سردة . المطبعة الحسنية ، تطوان ١٩٥٠

العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين . محمد المنوني . تطوان .